الباب الأول

العصر الجاهلى

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول : الشعر ...

إطلالة علي الأدب في العصر الجاهلي

كانت البيئة انعكاسا للأدب في العصر الجاهلي . عايشها العربي . فاكتسب منها الصلابة والصبر والكرم والقسوة والغلظة .

وتجلي هذا الأثر أكثر عند الشعراء فعبروا عن التاريخ الديني والاجتماعي والاقتصادي في البيئة . بل و عبروا عن كل شئ وقع عليه نظرهم بغض النظر عن القيمة الحقيقية للشئ المشاهد . وهم بهذا التأريخ جعلونا نتعرف علي جوانب الحياة في منظور العربي قبل الإسلام .

وكان للمرأة الجانب الهام في حياة الفرد . وكأنها النسمة الرقيقة التي تلطف من صعوبة الجو ووعورة الأرض وقلة الرزق .

وقد نجح الشعراء قبل الإسلام في التعبير عن هذه الحقبة خاصة أن معرفة دقائق هذه الفترة لم تدون لندرة من كان يعرف القراءة والكتابة . وبالتالي كان شعر الشعراء ترجمة لهذه الفترة . ولكي نتعرف بوضوح علي هذه الفترة لابد لنا من التعرف علي بعض الجوانب التالية :

أولاً : الجانب الديني :

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام وقد تأثر سكان هذه البلاد في عبادتهم بالتراث الديني في أوطانهم وببعض عبادات بعض البلاد التي اتصلوا بها خلال رحلتي الشتاء والصيف . كما اختلفت العبادات باختلاف الأمكنة . ففي

جنوب الجزيرة ظهرت عبادة الظواهر الكونية ؛ لارتباطها بحرفتي الزراعة والتجارة. كنجمة الصباح والشمس والقمر . وقد تحدث القرآن الكريم عن عبادة الشمس في مملكة سبأ ، وقد اتخذت الحياة الدينية في الشمال الشرقي . والشمال الغربي للجزيرة أشكالا مختلفة تأثرا بالفرس تارة . وبالرومان تارة أخري ،....

وعموما كانت الديانة الوثنية هي السائدة بين معظم قبائل العرب قبل الإسلام إذ عبدوا الأصنام والأوثان والأنصاب . وقد ذكر القرآن بعض أسماء هذه الأصنام كاللات والعزى ومناة ويغوث ونسرا . كما اعتنق بعضهم المجوسية وبخاصة جهة البحرين . بجانب ذلك كانت هناك الديانات السماوية فاليهودية انتشرت في بلاد العرب قبل الإسلام في خيبر . ووادي العزى . وفدك . وتيماء . ويثرب حيث قبائل بنى النضير . وبنى قريظة . وبنى قينقاع . وكأنما هذا التجمع كان مقصودا منهم لعلمهم أن نبى آخر الزمان سيهاجر إلي هذه الأرض . كما انتشرت اليهودية في بلاد اليمن وتعصب لها بعض ملوك حمير . وقد بين القرآن الكريم هذا التعصب في سورة "البروج" .

أما المسيحية فقد انتشرت في قبائل غسان وتغلب وقضاعة في الشمال وامتد ذلك إلي بلاد اليمن في الجنوب . وكان بين العرب جماعات مستنيرة عبدوا الله علي دين إبراهيم -عليه السلام - . وقد دعوا إلي نبذ عبادة الأصنام . والتخلص من عادات الجاهلية كوأد البنات . وشرب الخمر . ولعب الميسر . وكانوا يعتقدون بوجود إله واحد . ويطلق علي هؤلاء الحنفاء . منهم : ورقة بن نوفل . وأمية بن أبي

الصلت ، وعثمان بن الحويرث ، وكعب بن لؤى بن غالب ، وهو أحد أجداد الرسول – صلي الله عليه وسلم – وزيد بن عمرو بن نفيل .

ثانياً : الجانب الاجتماعي :

كان العرب يعيشون في قبائل يرأسها رئيس يسمي شيخ القبيلة ، ويختار من بين أفراد القبيلة سنا ، وشرفا ، وحسبا ، ونسبا ، وثروة ، وكرما ، وحلما ، وشجاعة ، وتجربة ، وكان يحكم بينهم بمقتضي العرف والتقاليد ، ويقودهم في الحرب ، ويفصل في أمور القتل ، والغزو ، والديّة ، والثأر ، كما يقضي في مسائل الزواج ، والطلاق ، وكان لشيخ القبيلة حقوق أهمها :-

١- **المرباع** : وهو اختصاصه بربع الغنيمة .

٢- **الصفايا** : وهو ما يصطفيه لنفسه قبل تقسيم الغنائم .

٣- **الفضول** : وهو ما يتبقى من الغنيمة بعد القسمة ، ولا يقبل قسمته علي المحاربين كبقاء امرأة بعد القسمة فهي من نصيب شيخ القبيلة .

٤- **الحكم** : هو أن يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيشين فيقتله ، ويأخذ سلبه ، فالحكم فيه إلي الرئيس ، أما واجبات رئيس القبيلة ، فتكون في إيواء الغريب ، وحماية الحمى ، والزود عن النساء ، وإجارة المجير ، وكانوا في وقت الحرب يضحون بما تملكه أيديهم في خدمة القبيلة ،

وإغاثة المحتاجين ، والمحافظة علي وحدة وقوة القبيلة ، أما أفراد القبيلة فكانوا يعملون كجماعة واحدة ، ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما ، ..

وكانت القبيلة اجتماعيا تتكون من ثلاث طبقات :

أ): أبناء القبيلة الخلص :

وهم ذووا الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة بمعني أنهم انحدروا جميعا من أب واحد ومنهم تكون الرياسة والشرف .

ب): العبيد : وهي تتكون من عنصرين :

الأول : عنصر عربي :

وهم الأسري الذين أسروا في الحروب سواء كان المأسور ذكرا أم أنثي .

الثاني : عنصر غير عربي :

وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية خاصة بلاد الحبشة والبلاد المجاورة لها ، أو يخطفون أثناء سفرهم كما حدث لسلمان الفارسي - t .

وعموما كانت تجارة الرقيق منتشرة بين القبائل تتخذ منها مصدرا للربح كسائر التجارة . وقد ضمن لهم الإسلام حقوقهم ، ونظم علاقاتهم بسادتهم تنظيما إنسانيا عادلا ، وأتاح لهم فرصا كثيرة للعتق والتحرر بعد أن كانوا يورثون كما تورث سائر الأمتعة التي يتركها المتوفي وراءه ، بل وجدنا الإسلام يجفف منابع الرق

. فيجعل كفارة الذنوب تحرير رقبة . وكان لأبي بكر الصديق - t - فضل كبير عند بداية الدعوة الإسلامية في شراء العبيد وتحريرهم .

ج): الموالي :

وهي الطبقة الثالثة وهم العبيد العتقاء والعرب الأحرار الذين لجأوا إلي قبيلة غير قبيلتهم . وعاشوا في حماها . وكانوا أحسن حظا من طبقة العبيد الذين كانت حياتهم سلسلة من العذاب والقهر علي يد سادة غلاظ الأكباد ؛ ولهذا كانت طبقة الموالي أسرع الطبقات دخولا في الإسلام .

أما في الحواضر فكان هناك نظام آخر للحكم فقد أجمع المؤرخون علي أن اليمن كان فيها نظام الملكية . وكانت فيها دول لها حضارات ومدنيات أشهرها مملكة سبأ التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة "سبأ" ،

ولم تكن كل الحواضر تسير علي نسق واحد في الحكم . إذ نجد أن بعض المدن والقرى مثل مكة لم يكن يحكمها ملك وإنما كان يحكمها عدة رجال قسمت الأعمال بينهم . وهم أصحاب الحل والعقد علي وفق العادات والأعراف والقوانين الموروثة . وكان لهم مكان يجتمعون فيه هو ناديهم ومقر حكمهم وكان يسمي "دار الندوة" .

وأما يثرب فقد تنازع السلطان فيها الأوس والخزرج . اللذان استقرا – بعد حروب كثيرة بينهما – علي أن يكون الحكم بينهما بالمناوبة . فيحكم زعيم الأوس عاما يليه في العام الثاني زعيم الخزرج . وبهذا يكون ليثرب ملك كل عام .

أما بقية المدن العربية فكان يحكمها حكام يلقبون أنفسهم بالملوك وما هم بملوك وإنما هم مشايخ مقاطعات مثل حكام حضرموت . وعلي كل حال فنوع هذه الحكومات غير معروف . ولكن كما ذكر القرآن الكريم في قصة سبأ . كان لبعض

هذه الممالك مجلس "شورى" إذ حينما قرأت ملكة سبأ كتاب سليمان – عليه السلام :-

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١)

وقد تأثر الشعراء بحياة القبيلة . وكانوا لسانها الناطق وعقلها المدبر . تفانوا في خدمتها . وانبروا للدفاع عنها فهذا "دريد بن الصمة" قد نصح أخاه وقومه ولكنهم لم يستجيبوا له وعصوه . ورغم ذلك ظل معهم . وقد صور لنا ذلك في قوله :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

فلما عصونى كنت منهم وقد أري غوايتهم وأنني غير مهتدِ

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولذلك وجدنا من أهم الأغراض التي تناولها الشعر الجاهلي الفخر بالقبيلة وبأمجادها وماضيها . وتمجيد سادتها والإشادة بأفعالهم وخير مثال علي ذلك معلقة "عمرو بن كلثوم" التي يقول فيها :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا

١- سورة النمل : الآية ٧٣ .

وأنـــا المانعـــون لمـــا أردنـــا وأنـــا النـــازلون بحيـــث شـــينا

وأنـــا التـــاركون إذا ســـخطنا وأنـــا الآخـــذون إذا رضـــينا

وأنـــا العاصـــمون إذا أطعنـــا وأنـــا العـــازمون إذا عصـــينا

ونشـرب إن وردنـا المـاء صـفوا ويشـرب غيرنـا كـدرا وطينـا

ملأنـا الـبر حتـى ضـاق عنـا ومـاء البحـر نملـؤه سـفينا

إذا بلـغ الفطـام لنـا صـبي تخـر لـه الجبـابر سـاجدينا

وقد عظمت قبيلة "بني تغلب" هذه القصيدة رغم ما بها من مبالغة حتى كانت سببا في هجائهم :

ألهـي بـني تغلـب عـن كـل مكرمـة قصـيدة قالهـا عمـرو بـن كلثـوم

يروونهـا أبـدا مـذ كـان أولهـم يـا للرجـال لشـعر غـير مسـئوم

ولم يكن فخرهم تمجيدا للقوة والبطش والجبروت فقط وإنما كانوا يفخرون أيضاً بالمثل العليا والقيم النبيلة مثل : الكرم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة المحتاجين فهذا حاتم الطائي يوزع ما عنده ويبيت علي الطوى :

أمـــا والـــذي لا يعلـــم الغيـــب غـــيره ويحيـى العظـام البـيض وهـي رمـيم

لقـد كنـت أطـوى الـبطن والـزاد يُشـتهي مخافـــة يومـــا أن يُقـــال : لئـــيم

ولنتأمل فحوى تكريم النبي ﷺ لابنة حاتم الطائي عندما وقعت في الأسر.

ولم يكتف الشعراء بالفخر بقبيلتهم بل قاموا بوصف المعارك التي كانت تدور بين قبيلتهم وغيرها من القبائل . فالجفاف والجدب وندرة المياه . وقسوة الحياة . جعلت العربي دائب السعي للبحث عن موارد المياه . ومواطن الكلأ . وبالتالي كانت القبائل في حل وترحال وراء الماء والكلأ . ومن يقرأ وصف "المثقب العبدي" لناقته يري ذلك :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وإرتحال أما يبقي علي وما يقيني

وهكذا كانت عوامل الطبيعة القاسية وراء الهجرات الكثيرة داخل الجزيرة العربية وخارجها . بل وأيضاً وراء كثرة الحروب بين القبائل . ويعد زهير بن أبي سلمى من أبرز الدعاة إلي السلم وتجنب الحروب ؛ فقد قدم الكثير من النصح لقومهمبينا ما تجره الحروب من خراب ودمار.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث ا لمرجمِ

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرمتموها فتضرمِ

فتعركم عرك الرحى بثقالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتئمِ

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم يرضع فتفطم

وكما كان هناك من يدعو إلي السلم ، كان هناك من يدعو إلي الثأر ، فمن كان له ثأر يحرم علي نفسه الطيب وأكل اللحم ، وشرب الخمر ، والاغتسال ، والقرب من النساء وخير من صور لنا ذلك المهلهل بن ربيعه حيث قال :

خذ العهد الأكيد علي عمرى بتركى كل ما حوت الديارُ
وهجرى الغانيات وشرب كأس ولبسي جبة لا تستعارُ
ولست بخالع درعى وسيفى إلي أن يخلع الليل النهارُ
وإلا أن تبيد سراة بكر فلا يبقي لهم أبدا قرارُ

وقد عرف العرب في الجاهلية نظام الأحلاف ، وقد كان للأحداث الدامية والحروب الطويلة التي ذكرناها سابقا الباعث الأول نحو تحقيق هذه الأحلاف وبهذا تزداد القبيلة الضعيفة قوة بالتحالف مع القبيلة القوية ، وإذا كانت هذه الأحلاف قد ساعدت علي التوحيد بين القبائل أحياناً ، فإنها في الوقت ذاته كانت عاملا من عوامل تشتيت المجتمع العربي إذا لم تتجاوز غالبا القبيلتين ، وقد كانت هذه الأحلاف تتم في مواسم وطقوس تشبه الطقوس الدينية فمن ذلك حلف "المطيبين" الذي عقد بمكة بين بنى عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل مع بنى عبد الدار بن قصي ، وإجماعهم علي أخذ ما بأيدي بنى عبد الدار ، فأخرج بنو عبد الدار جفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا ، وتعاهدوا مع حلفائهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم فسموا "المطيبين" ومن أعظم تلك الأحلاف حلف "الفضول" الذي قام من أجل إرساء العدل ونصرة الحق.

ومن الطقوس عندهم عند توثيق الحلف غمس الأيدي في الدم . وكان الحليف يتمتع بمكانة كبيرة حتى أنه كان يعد فردا من أفراد القبيلة ؛ ولذا كان المجير يرثه في ماله ويحميه من الأعداء .

ومع ما في هذه الفترة من تناقضات إلا أن المرأة قد نالت قدرا كبيرا من احترام الرجال . وقد اشتهر العربي بالغيرة علي نسائه . وقد تزينت المرأة بالملابس القطنية والصوفية والحريرية . واشتركت في المسائل السياسية . فقد عارضت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان النبي r والدين الجديد . بل وشاركت وأترابها في غزوة أُحد ضد المسلمين . وكان لها دور كبير في قتل حمزة t بل والأكثر أنها حمست فرسان قريش بالغناء لهم . ومن ذلك ما يروى أن هند بنت عتبة ونسوة من قريش كن يضربن الدفوف في غزوة أُحد . وكانت هند تغني مقطوعات حماسية تثير نخوة القوم وتشحذ هممهم من ذلك قولها :

إن تقيلـــــوا نعـــــانق ونفـــــرش النمـــــارق[1]

وإن تـــــدبروا نفـــــارق فـــــراق غـــــير وامـــــق[2]

كما لعبت أم جميل زوج أبي لهب دورها الخطير في محاربة الإسلام فجعلت ابنيها يُطلقان بنتى النبي r حتى ينشغل بمشاكله الخاصة عن رسالته السامية .

ولم تكن عادة وأد البنات متبعة عند جميع العرب في الجاهلية . بل كانت مقصورة علي بعض قبائل ربيعة وكندة وطئ وتميم .

(١) النمارق : مفردها نمرقة , وهي الوسادة الصغيرة .
(٢) وامـــق : محب

ولم يقتصر دور المرأة علي الجوانب السياسية والاقتصادية بل امتد ليشمل جانب التوجيه والتعليم ومن يقرأ وصية أمامه بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها يدرك عمق تفكير المرأة في هذا الزمان .

ثالثاً : الجانب الاقتصادي :

اتسعت تجارة الجزيرة العربية لموقعها المتوسط بين معظم الدول ففي شمالها الشرقي تقع بلاد فارس ، وفي شمالها الغربي تقع بلاد الروم ، وفي جنوبها الشرقي تقع بلاد الحبشة ، وقد مارس سكان الجزيرة العربية التجارة ، واستعانوا زمنا طويلا لبيع سلعهم بالفينيقيين .

وقد تنافس العرب واليابليون في الاتجار مع الهند ؛ بذلك لم تقتصر تجارة العرب علي جزيرتهم فحسب ، بل امتدت إلي دول العالم المعروفة في زمنهم . وكانت مكة مدينة تجارية من الطراز الأول ، وقد شغلت دول العرب القديمة مثل تدمر وسبأ ومعين المراكز التجارية الممتازة في تجارة الشرق ، وقد استفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية علي جانب كبير من الأهمية ، وساعد اشتغالهم بالتجارة ، وكثرة أسفارهم إلي الشام والحبشة ومصر وبلاد الفرس ، وبلاد الروم علي معرفة أحوال هذه الأمم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية مما كان له الأثر الكبير في تثقيف عقولهم ، ورقي مداركهم ، بل إن هذه الأسفار ساعدت علي معرفة بعضهم الكتابة والقراءة والحساب ، بل وساعدت بعض الشعراء علي تأثرهم بثقافات هذه البلاد فعمقت أفكارهم ، ورقت ألفاظهم، ومن أشهر هؤلاء الشعراء الأعشى ، والنابغة الذبياني .

وقد أثر دور الكعبة الديني وما أحيط بها من أصنام علي جعل مكة الخيط الذي يربط كل القبائل العربية . وجعل لها مركز الزعامة والريادة .

رابعاً : الجانب السياسي :

كان الأحرار من العرب يحاربون تحت إمرة الأمير أو شيخ القبيلة في وقت الحرب . وقد كثرت الحروب بين القبائل العربية في الجاهلية بسبب السيادة أو التسابق علي موارد الماء . ومنابت الكلأ . أو بسبب الثأر . وبسبب كل ذلك وقعت بينهم حروب كثيرة عرفت بأيام العرب من أشهرها :-

١-***حرب البسوس*** : وقد كانت بين قبيلتي بكر وتغلب ودامت أربعين عاما بسبب ناقة كانت تملكها امرأة من بكر تسمي "الباسوس" .

٢- ***حرب داحس والغبراء*** : وقد قامت بين عبس وذبيان وكان السبب فيها رهان علي سباق بين جوادين بهذا الاسم .

٣- ***أيام الفجار*** : وقد حدثت في الأشهر الحرم ؛ لذا أطلق عليها هذا الاسم . وقد كان الفجار الأول بين قبيلتي كنانة وهوازن . والفجار الثاني بين قبيلتي قريش وهوازن . والفجار الثالث بين كنانة وهوازن . والفجار الرابع بين قريش وكنانة من ناحية وهوازن من ناحية أخري .

٤- ***وقعة ذى قار*** : وكانت بين العرب والفرس . وقد عبر الأعشى في قصائده عن نصر العرب علي الفرس في هذه المعركة التي تعد أول انتصار للعرب حتى قيل إن الأعشى ساعد علي نشوب هذه الموقعة .

وقد انعكست هذه الحروب علي أشعار الشعراء العرب الذين عبروا عنها ، وعملوا علي وصفها . وقد ظهر في هذه الفترة شعراء تباهوا بقوتهم وفروسيتهم ودورهم في حماية القبيلة . والزود عنها . والثأر من أعدائها ، ومن هؤلاء الشعراء المهلهل بن ربيعة . وعنترة بن شداد . وغيرهما من الشعراء الفرسان . الذين كانوا لا يترددون في حماية الضعيف أو تلبية دعوة المكروبين . يقول قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائيات علي ما قال برهانا

ويصور الحطيئة في شعره تأصل هذه القيم التي تقف كالدرع الواقي أمام طبيعة قاسية وبيئة متحجرة :

وفتيان صدق من عدى عليهم صفائح بصرى علقت بالعواتقِ

إذا ما دعوا لم يسألوا من دعاهم ولم يمسكوا فوق القلوب الخوافقِ

وطاروا إلي الجرد العتاق فألجموا وشدوا علي أوساطهم بالمناطقِ

أحلوا حياض المجد فوق جباهم مكان النواصي من وجوه السوابقِ

وهكذا لو تتبعنا النظم والأصول التي وضعها العربي لحياته وما نتج عنها من سلوك نجد كل ذلك نتيجة طبيعية وحتمية لتلك الخصائص المناخية والإقليمية ؛

ولذلك سيطر علي العربي الإحساس بالقوة ، وتمجيد معاني البطولة ، والفداء ، والتضحية ، ونكران الذات ؛ لذلك لم تتوقف نغمات الحماسة والبطولة في القصيدة الجاهلية مهما كان غرضها أو مناسبتها الشعرية ، وقد انعكس ذلك في بنية القصيدة وفي موضوعاتها ، فالبيئة الصحراوية أوحت للشاعر الجاهلي شكل القصيدة وموضوعاتها ، وفرضت علي العربي بما فيها من جدب وجفاف ووعورة الحياة الهجرة والارتحال من مكان إلي آخر بحثا عن مواطن الكلأ ، ومنابع الماء ، فهو يقيم في المكان حتي إذا جف نباته ، وغاض ماؤه ، بدأ الارتحال من جديد إلي مكان آخر من أجل البقاء والمحافظة علي الحياة ، وأثناء ارتحاله يمر علي دياره التي كانت سكن الأهل والأحبة فيجدها قد امحت معالمها ، وخلت من سكانها وسادت الوحشة فيها فتغيرت معالمها وعمّها الخراب والفناء ، فيدخل في نفسه إحساس بالوحشة ، وشعور بزوال الحياة ، ويمر بخياله شريط الذكريات التي عاشت في ذهنه

فحفظ لها أجمل الأوقات ، فتنحدر الدموع ألما وحسرة ولا غرابة بعد ذلك إذا وجدنا الشاعر الجاهلي يُبرز ذاتيته ويُفرغ شخصيته محاولا إثبات وجوده المبعثر في هذه الصحراء ؛ وبالتالي انعكست كل هذه الأمور في شكل القصيدة فهو يبدأ بالوقوف علي الأطلال ثم ينتقل إلي ما يتعلق بها من ذكريات تثير عواطفه ، ثم يتخذ من ناقته وسيلة لإمضاء الهمّ ، وتسلية الحزن ، وتبديد الألم ، وجسرا يستطيع استخدامه للوصول إلي غايته ؛ ولهذا أسهب شعراء العصر الجاهلي في وصف الناقة ، والمتطلع في تلك الأوصاف يجد انسياب الصورة الشعرية للناقة بشكل موحد ، مما

يدل علي وجود اتفاق فني شكلا ومضمونا . ثم يصل الشاعر في النهاية إلي الغرض الذي من أجله أنشأ القصيدة . وهذا لا يعني أن القصيدة الجاهلية مفككة الأوصال فهي متحدة إتحادا فنيا سواء كان ذلك في شعر الحرب أم في شعر الغزل والفخر والهجاء والوصف أم في سائر أغراض القصيدة الأخري . وفي شعر الحرب نجد البطولة متأصلة في نفس العربي حتي أننا نجد أن عنترة بن شداد لم ينسبه شداد إليه إلا بعد ما أظهره من شجاعة في ميدان القتال . وقد أشار إلي ذلك عنترة حين قال :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصلِ
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألغيت خيرا من معم مخولِ
بكرت تخوفنى الحتوف كأنني أصبحت من غرض الحتوف بمعزلِ
فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أُسقي بكأس المنهلِ
فاقنى حياءك لا أبالك وأعلمى أني امرؤ سأموت إن لم أقتلِ

إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزلِ
والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقي فوارسها نقيع الحنظلِ

وفي قصيدة أخري يقول :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من حضر الوقيعة أنني أغشي الوغى وأعف عند المغنم

ومن صور شعر الحرب أيضاً قصيدة :

"عمرو بن كلثوم" التي يبدؤها بقوله :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

والقصيدة مليئة بالبطولة :

نطاعن ما تراخي الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا

نشق بها رؤوس القوم شقا ونخليها الرقاب فيختلينا

تخال جماجم الأبطال فيها وسوقا بالأماعز يرتمينا

تخر رؤوسهم في غير برّ فما يدرون ماذا يتقونا

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريقُ بأيدي لا عبينا

كأن ثيابنا منا ومنهم خضبن بأرجوان أو طلينا

لقد فرضت البيئة علي العربي القتال . وأصبح مفطورا عليه . ولم تقتصر البطولة عليه . فقد شاركته المرأة في تلك البطولات فكن يخرجن مع المقاتلين يسقين الجيش وينشدن الأهازيج الحماسية التي تحث علي القتال . ويضمدن الجراح . وقد عبر عن ذلك "عمرو بن كلثوم" في معلقته المشهورة :

علي آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخـذن علـي بعـولتهن عهـدا إذا لاقـوا كتائـب معلمينـا

يقـتن جيادنـا ويقلـن لسـتم بعولتنـا إذا لم تمنعونـا

والدفاع عن المرأة . ومنع الأعداء من الوصول إليها . وإنقاذ السبايا من الأعمال البطولية للفارس العربي . وهذا "عمرو بن معديكرب" لم يتمالك نفسه عندما رأي نساء قومه يجرين خائفات مذعورات أثناء معركة من المعارك فيهجم علي رئيس الأعداد مندفعا لمنازلته قائلا :-

أعـددت للحـدثان سـا بغـة وعـداء علنـدى[١]

نهـدا وذا شـطب يقد البيض والأبـدان قدا[٢]

وعلمـت أنـي يـوم ذاك منـازل كعبـا وهنـدا

لمـا رأيـت نسـاءنا يفحصـن بـالمعزاء شـدا[٣]

وبـدت لمـيس كأنهـا بـدر السـماء إذا تبـدى[٤]

وبـدت محاسـنها الـتي تخفـي وكـان الأمـر جـدا

نازلـت كبشـهم ولم أر مـن نـزال الكـبش ُبـدا[٥]

هم ينـذرون دمى وأنـذر إن لقيت بأن أشـدا

كـم مـن أخ لـي صـالح يوأتـه بيـدى لحـدا

مـا إن جـزعت . ولا هـلعت . ولا يـرد بكـاى زندا

١- علندي : ضخم
٢- نهـدا : فرسا غليظا
٣- المعزاء : الأرض الصلبة
٤- تبـدى : ظهر
٥- الكـبش : رئيس القوم

ورغم أن زهير بن أبي سلمي كان ينصح قومه ويدعوهم إلي الصلح وينفرهم من الحرب إلا أنه كان لسان قومه وقت الحروب فيمدحهم ويتحدث عن شجاعتهم قائلا :

إذا فزعوا طاروا إلي مستغيثهم طوال الرماح لا ضعاف ولا عزلُ

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

وإن يقتلوا فيشتفي بدمائهم وكانوا قديما من منياهم القتلُ

ولنتأمل حياة "النابغة الذبياني" فقد قضي حياته متفانيا في خدمة قومه . ومدافعا عنهم عند الملوك نظرا لموقع قبيلته من ملوك غسان والحيرة . فكم مدح هؤلاء الملوك واعتذر لهم من أجل قبيلته . فعندما عرف بعزم النعمان علي غزو قبيلة "بني حن" حاول أن يمنعه . ونهاه عن ذلك . فلما لم ينته النعمان عن ذلك أنبأ قومه بالخبر ودعاهم للاشتراك مع "بنى حن" في غزو النعمان . واستطاعوا معا أن ينتصروا عليه . وشعر النابغة أن في ذلك نصرا لقومه . وأخذا بثأرهم في يوم "ذى أقر" ؛ لقد قدم النابغة هذه الأخبار وتلك النصيحة وهو في بلاط النعمان مضحياً بمصلحته الشخصية من أجل مصلحة القبيلة . وحين وقعت نساء قبيلته أسري في يد الأعداء نراه حزيناً مهموما يسعي لدي الغساسنة ويمدحهم حتى يرفعوا أيديهم عن قومه . ويطلقوا من أسروه . ومن هذه المدائح قصيدته البائية التي تقطر أسي وحزنا والتي يقول فيها :

كليني لهمّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيه بطئ الكواكب[1]

(١) ناصب : متعب بطئ الكواكب : لا تغور كواكبه

تطاول حتى قلت ليس بمنقض ولـيس الـذي يرعـى النجـوم بآيـب
وصـدر أراح الليـل عـازب همـه تضاعف فيه الحزن من كل جانب[٢]

ثم يمدح الغساسنة بقوله :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصـائب طـير تهتـدي بعصـائب[٣]

وكان من نتيجة هذا المدح أن أطلق الغساسنة أسرى قومه .

لقـد كـرس النابغـة حياتـه وشـعره في خدمـة قبيلتـه . واحتلـت شـئونها وسياستها وحروبها جزءا كبيرا من شعره وتفكيره . وإن كان يدعو إلي السلام من أجل مصلحة قبيلته إلا إنه يري من واجبه الدفاع عنها إذا ما أعتدى أحد عليها .

إن هذه الأمثلة العديدة المختلفة تصور لنا موقف الشاعر الجاهلي البطولي من قبيلته فهو يدافع عنها بشتى الوسائل ويضحى من أجلها بكل شئ كي يعلو شأنها . ويرتفع قدرها . ومن هنا وجدنا القبيلة تعتز بشاعرها أكثر من اعتزازها

بفارسها ؛ لحاجة القبيلة إلي قيادة وجدانية تبث في أبنائها روح المروءة والنجدة . وإباء الضيم والكرم والشجاعة . فما بالنا إذا كان الشاعر فارسا كامرئ القيس أو عنترة بن شداد . أو المهلهل بن ربيعة . أو عمرو بن كلثوم . أو عمرو بن معد يكرب.إن المتتبع للقبائل العربية . والمتتبع للنصوص التي أوردناها يري أن وظيفة الشاعر في قبيلته من أخطر وظائف الزعامة والقيادة وهو وضع قضت به ظروف البيئة وظروف الحياة .

---

(٢) أراح الهم : رده إليه
(٣) عصائب : جماعات

obeikandl.com

منهج القصيدة الجاهلية

من يقرأ دواوين الشعر الجاهلي يجد أنها ضربان :

- **الضرب الأول** : قصائد طويلة كاملة تعالج موضوعات متعددة وهي بذلك تعبر عن عدة تجارب تكون مرتبطة أحيانا ومفككة أحياناً أخري . وهذا النوع من الشعر اهتمت به الدراسات الأدبية قديما وحديثا وأهم هذه المطولات المعلقات السبع .
- **الضرب الثاني** :

قصائد قصيرة ومقطعات صغيرة تتوفر فيها التجربة الشعورية الكاملة . وتصور الحياة الجاهلية تصويرا صادقا ؛ لأن هذه المقطوعات أو القصائد القصيرة تجارب صادقة لخفقات قلب الشاعر فهي لم تصدر عن تكلف أو صناعة .

ومن هنا ينصب حديثنا علي القصائد الطويلة ذات الموضوعات المتعددة التي تسير علي نظام موروث سنهُ متقدمو العصر الجاهلي ومن تبعهم من الشعراء فيما بعد .

والقصائد الطويلة تبدأ عادة بوصف الأطلال . وبكاء الدمن . ثم تنتقل إلي وصف الناقة وصفا دقيقا فهو لم يترك فيها شيئا إلا وصفه . ثم يخرج بعد ذلك إلي الغرض من القصيدة سواء كان الغرض مدحا أم هجاء أم غيرهما . وقد سار علي هذا النهج المتأخرون من شعراء صدر الإسلام وتبعهم كثير من شعراء العصرين الأموى والعباسي .

وتمهيد الشاعر بالمقدمة الطللية يمثل جزءا من حياة الشاعر ففيها صباه وحياته مع أصحابه وأترابه . وفيها يتحدث عن محبوبته . وكيف رحلت مع أهلها . يتذكر هذه الأشياء فيشعر بالأسي والحزن . وتقطر من عينيه الدموع . وسرعان ما يتذكر أن هذه سنة الحياة . فيثوب إلي رشده . ويركب ناقته التي يعتمد عليها في رحلته ؛ ولذلك أصبحت الناقة وسيلته في الحل والترحال .

وفي الرحلة تقابله مشاهد كثيرة تعج بها الصحراء . فليلها مظلم ونهارها حارق . وأمطارها تجرف أمامها كل شئ . وهو في رحلته أيضاً يري مشاهد مبهجة . فالصحراء يغطيها الكلأ والزهور الجميلة . ترتع فوقها الحيوانات من الحمر الوحشية والوعول والغزلان . فكأنه يضع في مقدمته الطلليه فلسفته في الحياة فهو فيها يشبع حاسته الفنية من رسم اللوحات التي تنبض بالحياة وتعج بالحركة . وتنطق بما فيها من جمال . ثم ينتقل الشاعر كما ذكرنا إلي الغرض الأصلي للقصيدة . وهو في كل ذلك يصف ما يقع تحت عينيه . وينثر حكمته وتجاربه في الحياة .

وقد سار الشعر علي هذا النمط في العصر الجاهلي المتأخر ، وفي الدولة الأموية حتى قرب نهايتها . وكانت صور القصائد تسير علي نمط واحد مما جعل النقاد يحللون القصائد علي مقتضي هذا الأمر . ويجعلون الخروج علي نمط القصيدة العمودية معيبا .

ومع ذلك فالقصيدة الجاهلية كانت أول الأمر موضوعا واحدا ثم مع البعد الزمني فقدت طريقة الوصل بين أجزائها وانعدم القسم المهيئ في القصيدة للانتقال

من موضوع إلي موضوع . ومن هنا جاءت مقولة أن القصيدة الجاهلية مفككة الأوصال غير مترابطة الأجزاء ؛ لأننا لو غيرنا ترتيب الأجزاء أو الأبيات لا يتغير المعني العام للقصيدة ؛ لأن كل بيت فيها مستقل بنفسه . قائم بذاته . وقد علل البعض هذا الأمر بكتابة القصيدة علي مراحل زمنية متفاوتة . واستشهدوا علي ذلك بحوليات زهير بن أبي سلمى .

وقد استجاد العرب بعض القصائد الطوال سميت بالمعلقات ؛ وذلك لجمال أسلوبها . وروعة صياغتها . وتنوع أغراضها ومن أصحاب هذه المعلقات :

أمرؤ القيس وزهير بن أبي سلمي وعنترة بن شداد . وعمرو بن كلثوم . وطرفة بن العبد . والحارث بن حلزة . ولبيد بن ربيعة وقد سجلت هذه المعلقات الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب الجاهليين .

بناء القصيدة الجاهلية

أولاً: المقدمة الطللية:

يري الباحثون أن أوليات الشعر العربي ضاعت واندثرت وهذه مشكلة الأشعار العالمية . ومن الطبيعي أن تضيع هذه المقدمات ويجانبنا الصواب إذا بحثنا عن تلك المقدمات في دور طفولتها . وعلي كل فاللوحة الطللية تعد من أهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية . إذ يعد الطلل بداية المرحلة الشعورية التي تمر من خلالها أحاسيس الشاعر وتجربته . ثم تتدفق بعد ذلك أفكاره مكونة أجزاء القصيدة . وقد اهتم الشعراء بهذه المقدمات لارتباطها الوثيق بإنسانية الشاعر . وصراعه مع الطبيعة من أجل المحافظة علي الحياة .

وكانت أول محاولة لتفسير بدء القصيدة بالحديث عن الأطلال علي يد ابن قتيبه إذ يقول : "إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربح . واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها . ثم يصل ذلك بالنسيب فيشتكى شدة الوجد . وألم الفراق ؛ ليميل نحوه القلوب . ويصرف إليه الوجوه . وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ؛ لأن التشبيب قريب من النفوس . لائط بالقلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل . وإلف النساء . فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه . والاستماع له . عقب بإيجاب الحقوق . فرحل في شعره . وشكا النصب والسهر . وسرى الليل .

وحر الهجير . وإنضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه أوجب علي صاحبه حق الرجاء . وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المدبح فبعثه علي المكافأة . وهزه للسماع . وفضله علي الأشياء" .

وقد حاول ابن رشيق تفسير هذه الظاهرة أيضاً . إلا أنه لم يضف علي سابقه شيئا .وما ذكره الاثنان من تعليل لا ينهض وحده بالكشف عن الأسباب الحقيقية وراء تلك المقدمات الطللية . ولا نجد أحدا تكسب بشعره في العصر الجاهلي سوى الحطيئة والأعشى . أما النابغة الذبياني فكانت مدائحه واعتذارياته في سبيل الدفاع عن قومه . كذلك لم تكن القصائد الطويلة التي بدئت بالمقدمات الطللية تختص بالمدح وحده . وإنما كانت تتصل بالفخر والهجاء والوصف وفنون الشعر الأخري .

"والواقع أن وقوف الشاعر الجاهلي عند أطلال أحبته أو بكاء دياره التي هجرها . أو اضطر إلي هجرها لم يكن غريبا ؛ لأن الطلل عنده قطعة من الحياة التي تهرم . كلما مضي منها جزء لا يستطيع الإنسان رده مهما حاول . فكأن البكاء علي الطلل أصبح يعني البكاء علي الحياة نفسها" (١)

إن المتتبع للمقدمات الطللية في العصر الجاهلي سوف يلحظ الصراع بين الحياة والموت . يقول امرؤ القيس :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

(١) دكتور نورى القيس : وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية صـ١٠

ويقول في معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوي بين الدخول فحومل[١]

فتوضح والمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل[٢]

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل[٣]

كأني غداة البين حين تحملوا لدي سمرات الحي ناقف حنظل[٤]

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمل[٥]

وأن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول[٦]

كديدنك من أم الحويرث قبلها وجاراتها أم الرباب بمأسل[٧]

ففاضت دموع العين مني صبابة على النحر حتى بل دمعي محملي

إن نظرة فاحصة في تلك الأبيات ترينا الشاعر واقفا علي الأطلال الدارسة يبكي عليها ويطلب من صاحبيه مشاركته في هذا الأمر سواء كان الصاحبان

---

(١) السقط : منقطع الرمل
(٢) توضح والمقراة : موضعان
نسجتها : تعاقبت عليها
(٣) الآرام : الظباء
(٤) السمرات : نوع من الشجر
(٥) المطي : الإبل
(٦) مهراقة : مسفوحة
(٧) الدين : العادة

اللوى : حيث يلتوى الرمل ويرق
لم يعف رسمها : لم تندثر آثارها

ناقف حنظل : الذي يستخرج حبه
وقف الدابة : حبسها
معول : من العويل والبكاء
مأسل : اسم موضع

حقيقيين أم انتزعهما الشاعر من خياله . ثم يتحدث عن الظباء التي انتشرت هنا وهناك تملأ المكان وتجعله يضج بالحياة . ..

ونحن في قصيدة "امرؤ القيس" نرى صورتين تسيران جنبا إلي جنب : صورة الديار وقد لفها الخراب . ثم صورتها وقد بعثت فيها الحياة بعد أن سكنتها الظباء . والأبيات من روائع الشعر الجاهلي لبساطة صورها . وسهولة ألفاظها . وعدم غوصها وراء الخيال . والتشبيهات البعيدة . فالتشبيهات التي ساقها الشاعر واضحة مأخوذة من البيئة العربية .

إن لوحة الطلل بكل صورها وألوانها تمنح الشاعر القدرة علي الكلام ؛ لأنه يصبح في حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر والأفكار . فلا غرابة إذا وجدنا الشاعر الجاهلي يحاول إثبات وجوده المبعثر في الصحراء .

يقول طرفة بن العبد في مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلدِ

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من ددِ[1]

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدي[2]

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد[3]

---

(١) المدوج : مراكب النساء الخلايا : السفن
النواصف : الشعاب دد : واد
(٢) عدولية : قرية بالبحرين ابعد يا من : ملاح من البحرين يجور : يميل
(٣) حباب الماء : أمواجه الحيزوم : الصدر
المفايل : لعب الأطفال

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد[1]

خذول تراعي ربربا بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي[2]

وتبسم من ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى[3]

ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

وبذلك نري أن المتتبع للمقدمات الطللية ، والصور التي وضعها بها الشاعر الجاهلي يجدها تعكس الحالات النفسية التي كانت تدور في ذهن الشاعر ، وترسم لنا المعاناة التي يعانيها والتي لم يجد لها حلا إلا الوقوف علي الأطلال متسائلا متعجباً من هذه الديار ، كيف كانت ؟ وكيف أصبحت ؟ ورغم الصورة القائمة لا يستسلم الشاعر لهذا الخراب ، بل يتشبث بالحياة وبهجتها ، فيصف صاحبته وصفا رائعا ينبض بالحياة .

إن البكاء علي الطلل أصبح جزءا من القصيدة مهما كان موضوعها ؛ لأن الطلل عندهم قطعة من الحياة التي تهرم مع مرور الزمن ، وهي لوحة تمهد لموضوعات القصيدة ، وتمثل صياغتها ، وعلي هذا الدرب سارت المقدمات الطللية إلا في القليل النادر ، فإذا انتقلنا إلي أكبر شعراء الصنعة في الشعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى ، وقرأنا المقدمات الطللية في شعره ، فستقا بلنا نفس الظاهرة ، فهو يطيل الوقوف عند هذه المقدمات الطللية ، ويعني بتصويرها ؛ لأنه فنان يعرف دقة الكلمة التي تلائم وصفه ، فمن يقرأ معلقته المشهورة يلمس هذا بوضوح ، فقد

١- أحوى : في شفتيه حمرة تضرب إلي السواد
المرد : ثمر الأراك الشادن : الغزال الذي قوى واشتد .
٢- خذول : متفردة البرير : ثمر الأراك.
٣- المنور : الأقحوان

قسم المقدمة الطللية إلي قسمين : قسم وقف فيه علي الأطلال بما فيها من خراب ودمار . وقسم آخر زاه متعلقاً بالحياة . يقول زهير :-

أمـــن أم أوفـــى دمنـــة لم تكلـــم بحومانـــــة الـــــدراج فـــــالمتثلمِ
ديـــار لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا مراجيـــع وشـــم في نواشـــر معصـــمِ[1]
بهـــا العـــين والآرام يمشـــين خلفـــة وأطلاؤهـا ينهضـن مـن كـل مجـثمِ[2]
وقفـت بهـا مـن بعـد عشـرين حجـة فلأيـــا عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهمِ[3]
أثـــافي ســـفعا في معـــرش مرجـــل ونؤيـــا كجـــذم الحـــوض لم يتـــثلم[4]
فلمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا ألا عـــم صـــباحا أيهـــا الربـــع وأســـلم

ثانياً : وصف الناقة :

رمزت المقدمات الطللية إلي الصراع بين البقاء والفناء ، وكان أمرا طبيعيا الانتقال إلي وصف الناقة فهي وسيلة الشاعر في رحلته عبر الصحراء . فهو دائم السعي للبحث عن الماء والكلأ صونا لحياته من الموت . وليس هناك أقدر من الناقة علي صحبة البدوى التي تلازمه في حلّه وترحاله . والارتحال من طبيعته أن يفرق بين الأحبة والصحاب ، مما يجعل الشاعرحزيناً باكيا . وهنا لا يري منجاة من ألمه وحزنه سوى أن يعلو ظهر ناقته فيسرع عليها للفرار من الديار المهجورة التي ذكّرته بمراتع الصبا وفراق الأحباب .

١- مراجيع : جمع مرجوع وهو المجدد
٢- خلفـــه : يذهب شئ ويجئ شيئ
٣- اللأي : الجهد والبطء.
٤- الأثـافـي : حجارة يوضع عليها الغدر
التعريش : مكان النزول

النواشر : العروق.
الأطلاء : الأولاد .

السفـع : السود
النـؤى : نهر يحفر حول البيت.

والشاعر الجاهلي عندما يقف علي ديار الأحبة ويتحدث عن حزنه لفراقهم والحنين إليهم . لا يثنيه ذلك عن هدفه الحقيقي ، وهو السعي إلي المجد وخوض مجاهل الحياة والانتصار عليها ؛ ولذلك كان الانتقال إلي الناقة معينا له علي مجابهة الحياة .

يقول طرفة بن العبد :- [1]

وإني لأمضي الهمّ عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

والانتقال إلي الناقة أمر ضروري دعت إليه . تلك الخيبة التي أصابت الشاعر عندما وقف علي دياره الخاوية من كل معالم الحياة ، وهو عندما ينهي وقفته يبدأ رحلته متخذا من الناقة وسيلة لإمضاء الهمّ . وجسرا للوصول إلي غايته ؛ لأن الشاعر البدوى بحكم ظروف البيئة قد وطّن نفسه علي مجابهة الحياة . والانتصار عليها ؛ لهذا كان يركب ناقته القوية ضاربا في الصحراء بقوة وعزم ،تعكس صلابة الناقة صلابته . وتبين قوتها مدى قوته . وبذلك لم يكن الانتقال من الوقوف علي الأطلال إلي وصف الناقة مفتعلا . وإنما الكثرة الكاثرة من الشعراء كانت تتخلص تخلصا رائعا عندما تنتقل من المقدمة الطللية إلي وصف الناقة .

يقول عبيد بن الأبرص :

وحنت قلوصي بعد وهن وهاجها مع الشوق يوما بالحجاز وميضُ [2]

فقلت لها : لا تضجري إن منزلا نأتنى به هند إليّ بغيضُ

١- ديوانه صـ٢٦

٢- قلوصي : ناقتى

ويقول لبيد في معلقته التي أحسن التخلص فيها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرّامها [1]

واحبُ المجامل بالجزيل وصرمه باق إذا ضلعت وزاغ قوامها [2]

بالنظر إلي الأبيات نجد أن لبيدا استطاع أن يهيئ الانتقال من المقدمة الطللية إلي وصف الناقة بطريقة جعلتنا لا نحس بهذه النقلة . بل وشعرنا أن الانتقال كان أمرا طبيعيا اقتضاه التدرج الذي سارت عليه أبيات القصيدة .

وقد خلع البدوى صفات القوة والبطولة علي ناقته فهو يصفها بالصلابة والقوة والامتلاء والضخامة والشدة . والسرعة . والصبر . والنشاط . والقدرة علي تحمل المشاق . وقد دارت هذه الصفات حول إطار لغوى واحد فهو يسميها بالجسرة . والناجية والحرف والوجناء والجمالية والشملال . والأمون . وذات اللوث . والقلوص . والعرمس . والجلالة والطليح . والأجد . ولو نظرنا إلي معلقة طرفة نجده بعد أن يفرغ من مقدمته الغزلية يرتحل علي ناقته ليزيل ما نزل به من هم . وليبدد ما أصابه من حزن .

يقول طرفة بن العبد :[3]

وإنى لأمضي الهمّ عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

ثم يتمثل ناقته وهي مندفعة علي الطريق الذي يشبهه بطرائق الكساء المخطط . وهي تسابق في مشيتها إبلا كراما سريعات :

١- اللبانة : الحاجة الصرام : القطاع

٢- ضلعت : اعوجت زاغ : مال

٣- شرح القصائد السبع الطوال للزوزنى صـ٤٩

أمـــون كـــألواح الإران نســـأتها علي لاحب كأنه ظهر برجد [1]

تُبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا تراءى فوق مور معبد

ثم يصف الناقة وهي ترعي أيام الربيع . وقد أختار الربيع لعودة الحياة إلي الصحراء مرة أخري :

تربعت القفين بالشول ترتعي حدائق مولىّ الأسرة أغيد [2]

ثم أخذ يصف أعضاءها عضوا عضوا :

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهـــا بـــاب منيـــف ممـــرد

ثم يستمر طرفة في وصف هذه الأعضاء وشدتها ودقة إحكامها . ومتانة بنيانها وسرعتها وكأنه مثال ينحت تمثالا شُغف به:

لهـا مرفقـان أفـتلان كأنمـا تمـــر بســـلمى دالج متشـــددِ

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفا حتى تشاد بقرمدِ

وبذلك نرى طرفة . وقد صنع تمثالا لناقته وهو كلف بهذا التمثال لذا نراه يتناوله من كل زواياه . وتشبيهات طرفة لناقته غاية في الدقة والروعة . وقد شبه كل عضو بما يقابله في الطبيعة وهو في وصفه اختار لناقته كل أوصاف القوة ؛ لأن الشاعر الجاهلي يعني بتحقيق الانتصار علي الحياة :

علي مثلها أمضي إذا قال صاحبي ألا ليتنى أفديك منها وأفتدي

وجاشت إليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسي علي غير مرصد

١- الإران : التابوت نسأتها : زجرتها اللاصب : الواضح

٢- السقف : ما أرتفع من الأرض الشول : الناقة الأسرة : طوابق من نبت

وقد شاب وصف الشاعر الجاهلي لناقته حس وعاطفة إنسانية سامية لدرجة أنه كان يسوى بين حبه لها وحبه لصاحبته . بل نقول : إنه أزال جدار العجمة بينه وبين ناقته فقدمها لنا كصديق حميم أثقله الحزن ،

يقول المثقب العبدي :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا ودينى

أكل الدهر حلّ وارتحال أما يبقي عليّ وما يقينى

وهكذا وصف الشاعر الجاهلي ناقته التي كانت في نظره ليست مجرد حيوان . بل هي وسيلته لمجابهة الحياة وواقعها الأليم . وهي في كل الأحوال رمز لحياته وجزء من كيانه . وشريكته في مسراته وأحزانه . فهي لم تكن وسيلتة لإمضاء الهم . أو وسيلته للوصول إلي الممدوح . وإنما هي شريكة لحياته . ..

ومن هنا كانت أحاديث الشعراء عن الناقة تؤكد قوتها . وشدة مقاومتها للطبيعة ذات الوجه الكالح . وقد أضفي الشعراء علي الناقة . وعلي الحيوانات التي شبهوها بها مجموعة من الأحاسيس . فإذا شبهوها بالحمار الوحشي جعلوه قويا يستطيع محابهة البرد والمطر شتاء . ولهيب الصحراء صيفا . وكذلك مجابهة الصيادين وكلابهم . وإذا شبهوها بالبقرة الوحشية جعلوها قوية تجابه تحديات الطبيعة القاسية . وغالبا ما يكتب النصر في النهاية للحمار أو البقرة .

ومن ذلك نعلم أن صورة الناقة ورحلتها عبر الصحراء إنما تمثل صورة لحياة العربي نفسه . فالعربي في مجابهته ظروف الطبيعة المختلفة يناضل . ويحارب .

وينتصر وقد أضفي هذه الأشياء علي ناقته وعلي التشبيهات التي ساقها ليبين لنا مدي قوته وصلابته وتحديه لظروف الطبيعة القاسية ، وهو عندما يضفي عليها صفات القوة والصبر والصلابةوالتحمل فكأنه يتحدث عن نفسه.

ثالثاً : موضوعات القصيدة :

هناك نوعان من القصائد في الشعر الجاهلي كما بيّنا من قبل : قصائد طويلة تتعدد فيها الموضوعات ، وتسير علي نسق معين ونظام موروث ، وأخري قصيرة تتحدث في موضوع واحد وتكتمل فيها عناصر الوحدة العضوية .

وتبدأ القصيدة الطويلة بالمقدمة الطللية ، وهي ليست تمهيدا للقصيدة كما يقول بعض النقاد ، ولكنها تعبير عن أزمة الإنسان الجاهلي وخوفه من المجهول وصراعه من أجل البقاء ، وينتقل الشاعر من المقدمات الطللية إلي وصف الناقة والرحلة في الصحراء بشئ من تداعي الخواطر ، والرحلة هي سبيل الشاعر للتعزية والتسرية ، وهي ترمز إلي حياة العربي وما يواجهه من صراع ، وفي النهاية يصل الشاعر إلي غرضه الذي من أجله انشأ القصيدة سواء كان المدح أم الهجاء أم الفخر أم الرثاء أم الوصف إلي غير ذلك من الأغراض .

وبرع الشاعر الجاهلي في تلخيص تجاربه في حكم شاردة نجدها في القصائد منثورة لتدل علي فلسفته في الحياة وصراعه من أجل البقاء .

وقد أخذ شكل القصيدة نظاما ثابتا يجمعها وزن واحد ، وقافية واحدة ، وإن كان هذا نظام القصيدة الطويلة عموما ، فقد جاء بعضها علي غير هذا النسق ، فقد شذت معلقة عمرو بن كلثوم علي هذا النظام ، وجاء معظم شعر الشعراء الصعاليك

خارجا عن تلك القاعدة . فقد استبدلوا المقدمة الطللية ووصف الناقة والرحلة عبر الصحراء بمحاورة النساء اللواتي يشفقن عليهن من خوض المعارك . مثل مخاطبة "عروة بن الورد" لزوجته "سلمي بنت منذر" يحثها علي تركه وشأنه في حياة الصعلكة ، **يقول عروة بن الورد** :

أقلي اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

ذريني أم حسان إني بها قبل أن لا أملك البيع مشترى

أحاديث تبقى . والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة تحت صبر

وقد استبدل كثير من الشعراء الديار بالغزل والحديث عن النفس . **يقول أوسى بن حجر** :

صحا قلبه عن سكرة فتأملا وكان بذكرى أم عمرو موكلا

وكان له الحين المناخ حمولة وكل امرئ رهن بما قد تحملا

ومن هذا النوع جاءت قصيدة "زهير بن أبي سلمى" :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وأقصرت عما تعلمين وسددت علىّ سوى قصد السبيل معاوله

والمتتبع لشعر شعراء الصعاليك يجد أنهم قد تخلصوا من المقدمات الطللية وكذلك تخلصت منها قصائد الرثاء .

أما القصائد القصار والمقطعات فقد جاءت علي أشكال مختلفة هي :

أولا : قصائد لا تكلف فيها . ولا صنعة

ثانياً : نتائج لتجارب شعرية كاملة

ثالثا: ترجمان صادق لعواطف الشاعر، وبالتالي تميزت بالتجربة الشعورية الكاملة، والوحدة العضوية التامة.

والمتتبع أيضاً لمقدمات القصائد الطويلة. وللمقدمات الطللية يدرك أن هذه المقدمات ما هي إلا رمز لحياة البدوى وصراعه مع الطبيعة. فإذا وصلنا إلي الغرض من إنشاء القصيدة. فسوف نجد وحدة متكاملة من حيث البناء والاتصال. فالشاعر في حالة المديح غيره في الهجاء أو الوصف أو الرثاء. ففي المديح يرسم المقدمات في صورة مشرقة. واضحة المعالم. مترابطة الأجزاء بواسطة نقلات مدروسة. أما في الرثاء فيحشد صورة من كل ألوان الحزن مما يجعل السامع يحس بتلك الكآبة التي تسيطر علي القصيدة من أولها إلي آخرها. وبذلك حين تتحقق وحدة الجو النفسي تكون القصيدة مرتبطة الأجزاء وغير مفككة. وهذا الجو النفسي لا يسود المقدمات فقط ولكن يشمل القصيدة كلها.

وتظهر أغراض القصيدة في :-

(أ) المديح

مدح الشعراء الجاهليون من يستحق المديح لأعماله البطولية. أو لمحافظته علي القيم الإنسانية العليا. وندر من مدح من أجل التكسب كالأعشي والحطيئة. وقد التزم الشعراء في قصائد المديح إطارا عاما لشكل القصائد.

وإذا تتبعنا النابغة الذبياني نجده يقدم المقدمات الطللية ليصل إلي غرضه في مدح النعمان . وفي نفس الوقت يعتذر عما رماه به الوشاة . فيبدأ داليته بالحديث عن الأطلال فيقول :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

ثم يتخلص الشاعر بعد المقدمات الطويلة إلي غرضه الأساسي . تخلصا بارعا لا يجعل السامع . أو القارئ يحس بتلك النقلة فالمعاني موصول كل منها بالآخر :

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا علي الناس في الأدنى وفي البعدِ

ولا أري أحدا في الناس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحد

ثم يبين بعد ذلك خصال النعمان . فهو في كرمه لا يدانيه أحد . فهو يهب المائة ناقة من خير النياق . ويعطي خيرة الخيل التي تمتاز بالسرعة والحركة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولي علي الأمد[1]

ثم نصل إلي الجزء الأخير من القصيدة وهو خاص بالاعتذار :

فلا عمر الذي مسحت كعبته وما هريق علي الأنصاب من جسدِ[2]

ما قلت من سئ مما أتيت به إذا فلا رفعت سوطى إلىّ يدى

إلا مقالة أقوام شقيت بها كانت مقالتهم قرعا علي الكبد

١- إلا لمثلك : أي أبيك الأمد : الغاية

٢- هريق : صب الجسد : الزعفران وهو هنا الدم

ثم يقول :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا فرار علي زأر من الأسد

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

ويختتم النابغة اعتذارياته بالثناء علي النعمان وهو في ثنائه يعتز بنفسه . وكأنه يقدم للنعمان شيئا غاليا يهديه إياه .

والقصيدة رغم اختيارنا لبعض أبياتها . سارت علي نهج القصيدة الطويلة المتعارف عليها . فبدأت بالوقوف علي الأطلال . ثم انتقل الشاعر إلي وصف الناقة. وقد اختصر الجزء الخاص بالمحبوبة . وأسهب في وصف الناقة والرحلة في الصحراء . ثم نجده يشبه ناقته بالثور الوحشي ثم ينتقل بعد ذلك إلي غرضه الرئيسى وهو المدح . والملاحظ أن بنية القصيدة أقرب إلي الكمال لبنية القصيدة الجاهلية الطويلة .

و فى قصيدة أخري من اعتذارياته نجده يمدح النعمان دفاعا عن نفسه فالوشاة أوغروا صدر الملك عليه ، وهو بريء مما قالوا، وما يحزنه هو لوم النعمان له هذا اللوم جعله قلقا أرقا كأن فراشه يعلوه الشوك، ويقسم للملك بأن ما قاله الوشاة كذب ، ثم يتحدث عن مكانته بين الملوك والإخوان، ثم تأتي الصور التي تعكس تأثر الشاعر ببيئته فتدل على صدق حبه للنعمان ، وعلى كذب الوشاة وكيدهم ، يقول فيها :

أَتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لِمتَني ... وَتِلكَ الَّتي أُهتَمُّ مِنها وَأَنصَبُ

فَبِتُّ كَأَنَّ العائِداتِ فَرَشنَ لي ... هَراساً بِهِ يُعلى فِراشي وَيُقشَبُ

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رَيبَةً ... وَلَيسَ وَراءَ اللَهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ

لَئِن كُنتَ قَد بُلِّغتَ عَنّي خِيانَةً ... لَمُبلِغُكَ الواشي أَغَشُّ وَأَكذَبُ

وَلَكِنَّني كُنتُ اِمرَأً لِيَ جانِبٌ ... مِنَ الأَرضِ فيهِ مُستَرادٌ وَمَذهَبُ

مُلوكٌ وَإِخوانٌ إِذا ما أَتَيتُهُم ... أُحَكَّمُ في أَموالِهِم وَأُقَرَّبُ

كَفِعلِكَ في قَومٍ أَراكَ اِصطَنَعتَهُم ... فَلَم تَرَهُم في شُكرِ ذَلِكَ أَذنَبوا

فَلا تَترُكَنّي بِالوَعيدِ كَأَنَّني ... إِلى الناسِ مَطلِيٌّ بِهِ القارُ أَجرَبُ

أَلَم تَرَ أَنَّ اللَهَ أَعطاكَ سورَةً ... تَرى كُلَّ مَلكٍ دونَها يَتَذَبذَبُ

فَإِنَّكَ شَمسٌ وَالمُلوكُ كَواكِبٌ ... إِذا طَلَعَت لَم يَبدُ مِنهُنَّ كَوكَبُ

وَلَستَ بِمُستَبِقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ ... عَلى شَعَثٍ أَيُّ الرِجالِ المُهَذَّبُ

فَإِن أَكُ مَظلوماً فَعَبدٌ ظَلَمتُهُ ... وَإِن تَكُ ذا عُتبى فَمِثلُكَ يُعتِبُ

وإذا انتقلنا إلي شاعر آخر كزهير بن أبي سلمي نجده يمدح هرم بن سنان . وهو في نفس الوقت يسلك مسلك النابغة . فيقف علي الديار . ثم يركب ناقته التي يشبهها بالناقة المسيوعة التي عدت العوادي علي ولدها . ولا تكاد تنسى آلامها حتى يطاردها الصياد وكلابه . وهي في النهاية تنتصر عليهم وهذا دأب قصائد المديح عند الشاعر الجاهلي .

يقول زهير بن أبي سلمي :

غشيت ديارا بالبقيع فثهمد ... دوارس قد أقوين من أم معبد

ثم يتخلص زهير إلي المديح تخلصا بارعا :

إلـي هـرم تهجيرهـا ووسـيجها تروح من الليل التمام وتغتدى

إلي هرم سارت ثلاثا من اللوى فـنعم مسـير الواثـق المتعمـد

والشاعر يمدح هرما لشجاعته وخصاله الحميدة :

سـواء عليـه أي حـين أتيتـه أساعة نحس تتقي أمْ بأسعد

أليس بضراب الكماة بسيفه وفكـاك أغـلال الأسـير المقيـد

كليث أبي شبلين يحمى عرينه إذا هـو لاقـي نجـدة لم يعـرد

ويمدحه أيضاً لكرمه وكثرة عطائه :

ألـيس بفيـاض يـداه غمامـة ثمال اليتامي في السنين محمد[1]

والشاعر في البيت السابق يشبهه في كرمه بالغمامة التي يفيض خيرها علي البقـاع فيـتم الخـير . وهـو ملجـأ اليتـامي فيرعـاهم في سـنين القحـط . والمتتبـع للتشبيهات التي ساقها يجد أنها مستقاة من البيئة . وكذلك الصفات التي ساقها هي صفات البطولة الحقة . والقيم التي قدسها العربي .

والمتتبع لقصائد المديح في العصر الجاهلي يجدها أحياناً تسير علي نسق واحد بدايـة مـن المقـدمات الطلليـة حتـى يصـل الشـاعر إلـي غرضـه . وأحيانـاً تختصـر

(١) ثمال اليتامي : يطعمهم ويقوم عليهم السنين : الشدائد

المقدمات . وأحياناً كان يكتفي بالغزل والمدح . ففي معلقة زهير اختصر تلك المقدمات فلم يبق منها سوى الوقوف علي الأطلال . وذكر الظعن ثم ينتقل مباشرة إلي المديح :

أمن أم أوفي دمنه لم تكلم بحومانة الدّرّاج فالمتثلم

وفي بعض الأحيان يستبدل الشاعر الديار بالغزل . والحديث عن النفس . فلا يبقي من بنية القصيدة سوى الغزل والمدح كقول النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث ملك الغساسنة :

كليني لهمّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ(١)

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيبِ(٢)

وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ(٣)

علىّ لعمر نعمة يعد نعمة لوالده ليست بذات عقاربِ(٤)

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت كتائب من غسان غير أشائبِ(٥)

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب(٦)

فهم يتساقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاق المضاربِ(٧)

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب(٨)

---

(١) كليني : اتركيني
(٢) آيب : راجع
(٣) عازب : بعيد
(٤) بذات عقارب : خالية من المن والأذى
(٥) غير أشائب : غير مخلطين
(٦) عصائب : جماعات
(٧) رقاق : قاطعة

وعموما كانت السمة الغالية في قصائد المديح الحرص علي المقدمات والوقوف علي الأطلال . والحديث عن المرأة . ثم وصف الناقة وتشبيهها بالثور أو البقرة أو الحمار الوحشي حتي يصل إلي الغرض الأساسي وهو المدح .

وكما قلنا سابقاً في المديح ينتصر الثور أو الحمار الوحشي علي الصياد وكلابه . واستمر منهج القصيدة يسير علي هذا النهج حتى نهاية العصر العباسي .

(ب) : الفخر

وهو ضرب من ضروب الحماسة . وفيه يفتخر الشاعر بنفسه أو بقومه . وهو عندما يفخر يتغني بكل الصفات النبيلة من كرم وشجاعة ومروءة وحماية للجار . وعراقة الأصل . وكثرة المال والولد .

ومن يتتبع قصيدة الفخر يجد أنها مرت بالمراحل التي مر بها المديح . فهي تبدأ بالوقوف علي الأطلال ثم ذكر المحبوبة ثم وصف الناقة وتشبيهها بالثور الوحشي والأتان والظليم . ثم منظر الصيد . وفشل الصياد وكلابه في اتباع ما ذكرناه ثم يصل الشاعر في النهاية إلي الغرض الأساسي وهو الفخر .

والشاعر في فخره بنفسه أو بقومه لم يترك موقفه من الحياة إذ يصور نفسه بالقوي الذي لا يقهر . وفي نفس الوقت يعكس هذه القوة علي راحلته فيصورها قوية لا تقهر برغم الصعاب التي أحاطتها بها الطبيعة ثم يتخلص إلي الفخر تخلصا

(٨) قـــراع : مضاربة

رائعا فالبطل الحقيقي في نظر الإنسان الجاهلي هو الذي يتحلى بالصفات النبيلة كالفروسية والكرم والتضحية والحلم وقت الغضب والبأس في الحروب .

ولو تتبعنا قصيدة لبيد المشهورة نجد أجزاءها قد جاءت وثيقة الصلة بعضها ببعض :

أقضي الليانة لا أفرط ريبة أو أن يلـــوم بحاجـــة لوامهـــا

أو لم تكن تدرى نوار بأنني وصّـــال عقـــد حبائـــل جـــذامها

تـراك أمكنـة إذا لم أرضـها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم يقول :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلـــق لذيـــذ لهوهـــا ونـــدامها

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيـت إذ رفعـت وعـزّ مـدامها

وهنا نجد الشاعر بعد أن فرغ من وصف ناقته يفخر بانتصاراته ويعتز ببطولاته التي تطالعك من خلال كلماته لصاحبته نوار وهي إن كانت قد شغلت عنه بالرحلة والانتقال فهو مشغول عنها بأعماله وبطولاته فأيامه كلها سلسلة من البطولات والانتصارات :

ولقد حميت الحيّ تحمل شكتى فرط وشاحى إذ غدوت لجامها

فعلـوت مرتقبـا علـي ذى هبـوة حـــرج إلـــي أعلامهـــن قتامهـــا

حتـى إذا ألقـت يـدا في كـافر وأجـن عـورات الثغـور ظلامهـا

رفعتهـا طـرد النعـام وشـله حتى إذا سخنت وخف عظامها

قلقت رحالتها وأسبل نحرها وابتل من زبد الحميم حزامُها

ترقي وتطعن في العنان وتنتحى ورد الحمامة إذ أجدّ حمامها

ولو تتبعنا بعض معاني الأبيات فسنجد الشاعر يصور حياته لمحبوبته علي أنها سلسلة من البطولات فهو في السلم يلهو مع أصحابه وفي وقت الحرب يدافع عن قومه فيمتطى فرسه بسرعة مرتديا ثياب الحرب . متوشحا لجام فرسه ليظل علي أهبة الاستعداد . وفرسه قوية نشيطة تطارد النعام فتسبقه . وهي تعدو وكأنها تطعن بعنقها لجامها . ثم إذا أطلقت ساقيها للريح كانت كالحمام العطش التي تسابق الريح بحثا عن الماء . ثم يعود لبيد ليصور كرمه وكرم قومه فيقول :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامُها[1]

فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصبا أهضامها[2]

وتختلف المقدمات عند "عمرو بن كلثوم" فهي لم تسر علي نسق الفخر عند الشعراء الجاهليين حيث إنها اختفت أو كادت حيث استبدل الطلل بالخمر . ثم يعد الغزل انتقل إلي الفخر مباشرة .

يقول في مطلع معلقته :[3]

ألا هبي بصحتك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا[4]

---

(١) جزور أيسار : أصحاب الميسر المغالق : سهام الميسر

(٢) تبالة : وادى خصب الهضيم : المطمئن من الأرض

(٣) شرح المعلقات السبع صـ٣٧١ وما بعدها

(٤) فأصبحينا : أي اسقينا خمر الصباح الأندرين : قرية بالشام كثيرة الخمور

وبعد المقدمة الخمرية التي بدأ بها يسوق لنا فهمه للحياة فهو يفخر بشجاعته وقوته وعدم خوفه حتى من الموت . لأنه النهاية الحتمية لكل حيّ :

وإنـــا ســـوف تـــدركنا المنايـــا مقـــــدرة لنـــــا ومقـــــدرينا

ثم يلي ذلك المقطع الغزلي الذي يصف فيه صاحبته :

قفـي قبـل التفـرق يـا ظعينـا نخـــبرك الـــيقين وتخبرينـــا

بيـــوم كريهـــة ضـــربا وطعنـــا أقـــرّ بـــه مواليـــك العيونـــا

قفـي نسألك هـل أحـدثت وصـلا لـو شـك الـبين أو خنـت الأمينـا

ولو استبعدنا المقطع الغزلي . وتجاوزناه إلي الفخر فسنري أن المعلقة تسيطر عليها عاطفة واحدة . ففخر الشاعر بنفسه وبقومه من الأشياء التي يمجدها البدوى ؛ لأنها تحمل كل معاني البطولة والفحولة والاستبسال والدفاع عن النفس وتمجيد معاني الفداء والتضحية والإيثار . وقد بدأ الشاعر مقطع الفخر بتخلص رائع من مقدمات قصيدة الفخر :

وإن غـــدا وإن اليـــوم رهـــن وبعـــد غـــد بمـــا لا تعلمينـــا

أبـــا هنـــد فـــلا تعجـــل علينـــا وأنظرنـــــا نخـــــبرك اليقينـــــا

بأنـــا نـــورد الرايـــات بيضـــا وتصـــدرهن حمـــرا قـــدروينا[1]

وأيـــام لنـــا غـــرّ طـــوال عصـــينا الملـــك فيهـــا أن نـــدينا

وســـيد معشـــر قـــد توجـــوه بتـــاج الملـــك يحمـــى المحجرينـــا[2]

(١) نصدرهن : نردهن
(٢) المحجرين : الذين ألجئوا إلي الضيق

والقصيدة في مجملها تكشف عن الشخصية العربية الأصيلة بما تحمله من معاني السيادة والشرف والنضال من أجل الحياة . والقصيدة استطاعت من خلال البناء الذي سارت عليه أن تحقق الوحدة الشعورية . ومن هنا كانت هذه القصيدة خير مثال لروح العصر الجاهلي وقيمه وأخلاقه .

وقد انحسرت بنية قصيدة الفخر حتى لم يبق للمقدمات أثر . بل وجدنا بعض الشعراء يدخلون مباشرة علي الفخر مثلما فعل "عمرو بن الإطنابة" الذي بدأ قصيدته بالفخر بقومه فيقول :

إنى من القوم الذين إذا انتدوا بدأوا بحق الله ثم النائلِ[1]

المانعين من الخناجاراتهم والحاشدين علي طعام النازِل

والضاربين الكبش يبرق بيضه ضرب المجهجه عن حياض الآبل

والقاتلين لدي الوغي أقرانهم إن المنية من وراء الوائل

والقائلين فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل

ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل

وهذه القطعة تمثل موقفا إنسانياً واحدا . وتعبر عن تجربة شعورية واحدة .

وفي الفخر أيضاً ***يقول عنترة بن شداد***[2]

خلقت من الحديد أشد قلبا وقد بلي الحديد وما بليتُ

---

(١) النائل : العطايا .

(٢) لما خرج عنترة غاضبا من قومه لعدم اعترافهم بحريته ونسبة فيهم وأقام في بني عامر , انتهز الأعداء الفرصة وأغاروا علي ديار قومه , وكادت قبيلته تهزم لولا استنجادها به , فأسرع لنجدتهم ..

وفي الحرب العوان ولدت طفلا ومن لبن المعامع قد سقيتُ

ولي بيت عـلا فلك الثريا تخرّ لعظم هيبته البيوتُ

والمتتبع للقصائد التي استشهدنا بها يري أن موضوع الفخر يدخل ضمن الوحدة العامة لبناء القصيدة الجاهلية كما يري أيضاً أن طبيعة غرض الفخر تفرض علي الشاعر اقتطاع أجزاء من المقدمات التي لم يعد في حاجة إليها وبالتالي في كثير من الأحيان صارت القصيدة الفخريّة قاصرة علي الفخر وحده دون مقدمات .

(ج) الهجـــاء

سارت القصيدة في الهجاء علي نهج قصيدة المديح باتخاذها المقدمات المألوفة . وإن كانت المقدمات مختصرة عن غرض المديح ؛ لأن حالة الغضب التي فيها الشاعر لم تدع له مجالا لهذه المقدمات .

ولم يقف شاعر عند هذه المقدمات في غرض الهجاء سوي "زهير بن أبي سلمي" في همزيته التي يهجو فيها "آل حصن" والتي مطلعها :[1]

عفا من آل فاطمة الجواءُ فالقوادم فالجساء

فيمن فالقوادم فالحساء

(١) ديوانه صـــ٩

والمتتبع لهذه القصيدة في ديوانه يجدها تبدأ بالوقوف علي الأطلال . ثم الغزل. ثم وصف الناقة والرحلة في الصحراء . وقد أضاف زهير لوحة أخري في هذه المقدمة وهي لوحة الخمر . ثم انتقل إلي غرضه الأساسي وهو الهجاء .

يقول زهير بن أبي سلمى :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساءُ

فإن قالوا النساءمخبآت فحق لكل محصنة هداءُ

وإما أن يقول بني مصاد إليكم إننا قوم براءُ

وإما أن يقولوا قد وفينا بذمتنا فعادتنا الوفاءُ

وإما أن يقولوا قد أبينا فشر مواطن الحب الإباء

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أونفار أوجلاءُ[1]

ويستمر "زهير" في هجائه :

فمهلا آل عبدالله عدوا مخازى لا يدب لها الضراءُ

أرونا سنة لا عيب فيها يسوى بيننا فيها السواءُ

ورغم أن المقدمة طويلة نسبيا . فقد استغرقت نحوا من أربعة وثلاثين بيتا إلا أننا وجدناها تتصل بالمعني الذي ساقه في هجائه . فالأطلال قد عفت من أهلها . وصارت خرابا . ورغم ذلك لم يستسلم الشاعر لظروف الطبيعة من رياح وأمطار .

١- ثلاث : أي ثلاث خصال النفار : التنافر

بل جعل هذه الأمطار سببا في دبيب الحياة من جديد . ثم يصف الناقة والرحلة في الصحراء ثم يصل إلي الغرض من القصيدة .

ومن هنا كان الهجاء دفاعا عن النفس وعن القبيلة فهو شعور إنساني يصور مقاومة الظلم . وقد سار "الأعشى" في بعض قصائده الهجائية علي وتيرة شعر "زهير" فقدعنى بتلك المقدمات . وخير مثال علي ذلك معلقته المشهورة : [١]

ودع هريرة إن الركب مرتحلُ وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ

وتستغرق المقدمات في هذه المعلقة نحوا من أربعة وأربعين بيتا ينتقل بعدها إلي الهجاء الذي يبدؤه بقوله :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكة أبا ثبيت أما تنفك تأتكل ؟ [٢]

ويتابع هجاءه المقذع في نحو من عشرين بيتا كلها تهكم وسخرية ووعيد ثم يفتخر بقومه في آخر .... ***القصيدة بقوله*** :

قد تخضب العير في مكنون فائله وقد يشيط علي أرماحنا البطل[٣]

وعلي نمط الهجاء المقذع أشعار الحطيئة فهو يدخل إلي غرضه مباشرة دون مقدمات . ومن هذا القبيل هجاء الحطيئة لأمه :

جزاك الله شرا من عجوز ولقاك العقوق من البنينا

تنحي فاجلسي منى بعيدا أراح الله منك العالمينا

حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

١- ديوان الأعش صـ٩١

٢- مألكه : رسالة تأتكل : تحتك من الغيظ

٣- العير : الحمر الوحشية فائل : عرق في الفخذ

وكما كان للشاعر عند الفخر والمديح هيئة مشرقة جذابة كان عند الهجاء في هيئة قاتمة مفزعة ، ولنأخذ مثالا علي هيئة الشاعر عند الهجاء : ذهب لبيد وهو صبى مع أخواله إلي الملك النعمان ، وقرب الوصول تركوا لبيدا مع الإبل خارج المدينة . وعندما دخلوا علي الملك وجدوا عنده رجلا من قبيلتهم أوغر صدر الملك عليهم فاستقبلهم استقبالا سيئا وأمرهم أن يرجعوا إليه في اليوم التالي . وعندما رجعوا إلي لبيد تعجب من أمرهم ،فسألهم فعلم بما فعل الرجل معهم ، فقال لهم : خذوني معكم إلي الملك . وفي اليوم التالي دخل معهم . فقال الملك : من المتحدث اليوم ؟ وكان نفس الرجل الذي أوغر صدر الملك علي أخوال لبيد يأكل معه . فأشاروا إلي الصبي . فاستصغر الملك شأنهم ثم أمر لبيدا أن يتكلم . فقال قصيدة بدأها بالهجاء المقذع :

أرجو أبيت اللعن لا تأكل معه .....

فاشمأزت نفس الملك من الأكل مع الرجل وطرده من مجلسه . فما هيئة لبيد عندما قال قصيدته ؟

كان لبيد يلبس ثوبا مقلوبا الصدر مكان الظهر . وقد صبغ نصف وجهه باللون الأحمر . وصنع ذؤابة من شعره رفعها كقرن الشيطان . وكان ينتعل في قدمه اليسرى فرده خف . وهكذا كان يصنع الشاعر عند الهجاء . فهو يتناول العدو بسلاح الشعر . وأسلحة الحرب دفاعا عن القبيلة . وحرصا علي سلامتها .

(د) الرثـــاء

تخلصت قصيدة الرثاء في الأغلب الأعمّ من المقدمات المألوفة ؛ لأن الرثاء في حقيقته تعبير عن اللوعة والحسرة والحزن . بل رأي الكثير من النقاد ومنهم "ابن رشيق" أن من العيب أن تبدأ قصيدة الرثاء بتلك المقدمات . ومع ذلك فقصائد الرثاء التي بدئت بالغزل قليلة . والمقدمة لا تتجاوز الأبيات القليلة . وهي في كل الأحوال يمهد بها الشاعر لذكر الميت . وغالبا ما تشتمل أبيات المقدمة علي جو يسوده الحزن والألم والشكوى والتفكير والحكمة .

معني ذلك أن الشاعر حين يبدأ بالمقدمة يتخذها وسيلة أو جسرا للوصول إلي غرضه . فهو لا يهتم لفراق صاحبته . وإنما ذكر فراق الحبيبة وسيلة إلي ذكر من فجع فيهم من قومه .

يقول لبيد في رثاء أخيه إربد :[1]

طرب الفؤاد وليته لم يطربِ وعناه ذكرى خلة لم تصقبِ[2]

سفها ولو أني أطعت عواذلي فيما يشرن به بسفح المذنبِ

لزجرت قلبا لا يريع لزاجر إن الغوى إذا نهى لم يعتبِ

ثم ينتقل بعد ذلك سريعا إلي الرثاء :-

فتعز عن هذا وقل في غيره واذكر شمائل من أخيك المنجبِ

يا أربد الخير الكريم جدوده أفردتني أمشي بقرن أعضبِ

إن الرذية لا رذية مثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكبِ

---

(١) ديوانه صـ١٦

(٢) خلة : صديقة لم تصقب : لم تجاوز ولم تقترب

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجربِ

وليست المقدمات بظاهرة عامة عند شعراء هذا العصر بل ليست بظاهرة عامة عند الشاعر نفسه فأبوذؤيب الهذلى في رثاء "تشيبة بن الحرث" يطيل في مقدمة قصيدته التي مطلعها :

هل الدهر إلا ليلة ونهارها وإلا طلوع الشمس ثم غيارها[1]

و فى رثاء أولاده الخمسة الذين هلكوا واحدا واحدا بسبب الطاعون الذي أصابهم فى مصر عام ثمانية عشر لهجرة. فالمقدمات فى قصيدته الثانية طويلة تشمل القصيدة كلها . و هى قصيدة تتميز بروعة معانيها و عمقها و إنسانيتها و صدق عاطفتها ، ففى الجزء الأول من القصيدة يصور لنا الشاعر هول الفاجعة و ما صار علية حاله بعد فقد أولاده فيقول :

أمن المنون و ريبها تتوجع و الدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع

فأجبتها أن ما لجسمي أنه أودى بني من البلاء فودعوا

أودي بنى وأعقبوا لى حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

ولقد أري أن البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكا من يفجع

(١) غيارها : غيابها , والمعني هل الدهر إلا ليلة تذهب ويوم يجئ .

سبقوا هواى وأعنفوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع[1]

فغبرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع[2]

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فحواره مع أميمة كان تعبير عن الانفعالات المكبوتة في صدره . فأميمه تلومه علي نحول جسمه وشحوبه متهمة إياه بأن سبب ذلك تقتيره علي نفسه . وخشونة مضجعه . متجاهلة حقيقة الأمر . وهي هلاك أولاده الخمسة . وفراقه لهم ورغم أنه يري أن البكاء حمق وطيش إلا أنه يعود فيقول : إن الموت يعود الإنسان البكاء . ولا غرابه في تناقضه ؛ لأن الحدث جلل . فالموت أقوي من كل شئ . ثم يعطينا في النهاية صورة بشعة للموت . فهو كالوحش الكاسر الذي إذا أنقض علي فريسته لا يستطيع أحد أن ينقذها منه .

ويتوالي تصوير حزنه وآلامه . وسوء حالة في باقي القصيدة . والقصيدة طويلة نوعا ما ولكنها غاية في الروعة . فرغم تعدد أجزائها . نجدها متماسكة يسودها جو من الانفعال الحزين .

ولو تأملنا لوحة (الحمار وأتانه) في القصيدة لن نجدها منفصلة عن غرض القصيدة . فقد صور لنا الأتن في فصل الشتاء . وهي نشوى فرحة لوفرة الكلأ والماء

(١) هوى : هواى أي ماتوا قبلي أعنفوا : أسرعوا تخرموا : أخذوا واحدا واحدا

(٢) غبرت : بقيت ناصب : ذو نصب وتعب

ثم صور لنا معاناتها في فصل الصيف . وقد جف كل شئ في الصحراء حتى إذا عثرت علي الماء ودخلها شئ من الفرح صرعتها أسهم الصائدين . وهكذا يموت الحيوان في قصيدة الرثاء وتكتب له النجاة في قصائد المديح والفخر.

وإذا تتبعنا رثاء الخنساء لأخيها صخر نجد أنها لا تفتتح مراثيها بتلك المقدمات ؛ لصدق عاطفتها . وعمق أحاسيسها . فقصائدها في رثاء أخيها تمتلئ بالحزن واللوعة *تَقول* :

يذكرني طلوع الشمس وأذكره لكل غروب شمسِ
صخرا

ولولا كثرة الباكين حولى علي إخوانهم لقتلت نفسي

وتَرثي أخاها صخرا في قَصيدةٍ أخرى فتَقول :

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي ؟

ألا تبكيان الجريءَ الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا ؟

طويل النجاد . رفيع العماد ساد عشيرته أمردا[1]

إذا القوم مدوا بأيديهم إلي المجد مد إليه يدا

فنال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

تري الحمد يهوى إلي بيته يري أفضل الكسب أن يحمدا[2]

---

(١) النجاد : حمائل السيف
أمرد : لم تنبت لحيته

(٢) الحمد : الثناء
يهود : يسرع

ولقد استطاعت الخنساء في مقطعاتها الرثائية أن تحقق الوحدة العضوية بمفهومها الحديث . وليست هي وحدها التي نهجت هذا النهج وإنما تجد الكثرة الكائرة من قصائد الرثاء تنحو هذا المنحي . والأمثلة علي ذلك كثيرة .

معني ذلك أن قصيدة الرثاء في أغلبها لم تسلك في بنيتها المسلك الذي رأيناه في قصيدة المديح لأن الشاعر في قصيدة المديح كان يهتم بالمقدمات إظهارا لما تضفيه الطبيعة علي الإنسان العربي من صلابة وإباء وشمم . فإذا كانت ظروف الحياة قاسية فلن يتحمل العيش فيها إلا الإنسان القوى الصلب الذي يستطيع أن يتغلب علي كل صعاب الحياة . ولكن في قصيدة الرثاء نجد المقدمات تكاد تختفي تماما أو اختفت تماما كما في شعر الخنساء وفي شعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية وغيرهما.

هـ) الوصف

يعد الوصف جزءا لا يتجزأ من موضوعات القصيدة في العصر الجاهلي . فالشاعر الجاهلي نظر إلي الطبيعة ووصف كل ما وقعت عليه عيناه من نباتات وحيوانات وديار وأطلال وأمطار وسماء ونجوم . فنراه يسجل كل شئ يشاهده . وتعد لوحة الوصف من الأغراض الرئيسة في قصيدة المديح والفخر . تختفي في قصائد الرثاء وتنحسر في قصائد الهجاء . ومع ذلك فهناك قصائد كاملة أفردها الشعراء للوصف مثل قصيدة "امرئ القيس" في وصف المطر :

ديمـــة هطـــلاء فيهـــا وطـــف طبـــق الأرض تحـــرى وتـــدر[1]

تخـرج الـودق إذا مـا أشـحذت وتواريـــــه إذا مـــــا تشـــــتكر

والشاعر يصور المطر وهو ينهمر حتى يعم الأرض من حوله والقصيدة في ديوانه صـ١٤٦ وبعدنا عن اللغة لا يجعلنا نتهم ألفاظ القصيدة بالصعوبة والتعقيد.

وديوان الحماسة لأبي تمام تكثر فيه المقطوعات الخالية من المقدمات . والتي تنفرد بموضوعات الوصف . وقد شمل الوصف بعض القصائد الطوال مثل معلقة امرئ القيس فهو قد بدأها بالوقوف علي الأطلال . ثم يتحدث عن رحيل الأهل . ويصف الأماكن التي رحلوا عنها . ويبرز الخراب الذي غلب عليها . فهو يسترجع الماضي في أسلوب قصصي جذاب :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح والمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

تـــري بعـــر الآرام في عرصـــاتها وقيعانهـــا كأنـــه حـــب فلفـــل

كـأني غـداة البين حـين تحملـوا لدي سمرات الحى نـاقف حنظل

وقوفـا بهـا صـحبى علـي مطـيهم يقولـون لا تهلـك أسـي وتجمـل

والملاحظ في هذه المقدمة أن الشاعر اتخذ من الخراب ما يجدد به الحياة . فالأماكن التي هجرها أصحابها قد قامت فيها حياة أخري هي حياة هذا الحيوان من الظباء . ويوضح أن عوامل الفناء لم تقدر علي إخفاء ديار أحبته . ...

---

(١) الوطف : الدنو من الأرض طبق الأرض : تعمها
تـــدر : يكثر مالها تحري : تعمد إلي الأمكنة وتبيت فيها

وقد تنوعت ذكريات الشاعر في معلقته فهو يذكر "أم الحويرث" و "أم الرباب" و "عنيزة" ابنة عمه . ومن كان معها من "العذاري" كما يذكر غيرهن من النساء . وقد وصف الشاعر في أبيات الغزل جمال صاحبته فوصف شعرها . وعينيها . وجيدها . وخصرها . ويديها ورائحتها . وإن كان الوصف في الشعر الجاهلي حسيا إلا أن الشاعر جمع بين الصفات الحسية والروحية **يقول** :

تضـــئ الظـــلام بالعشـــاء كأنهـــا منـــارة ممـــس راهـــب متبتـــلِ

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

ثم يصف الشاعر توتره وضيقه فيصوره بطول الليل وظلمته مرة . وفي موج البحر مرة . وفي البعير الذي أردف أعجازا وناء بكلكله مرة ثالثة :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـــىّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي

فقلـت لـه لمـا تمطـى بصـلبه وأردف أعجـــازا ونـــاء بكلكـــلِ

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلى بصبح وما الإ صباح منك بأمثلِ

فيالـك مـن ليـل كـأن نجومـه بكـل مغـار الفتـل شـدت بيـذبل

ثم ينتقل الشاعر إلي وصف حصانه . فيصفه بطائفة من التشبيهات . وكأنه بهذه الصفات الأسطورية ينتصر لنفسه :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجـــرد قيـــد الأوابـــد هيكـــلِ

مكـر . مفـر . مقبـل . مـدبر كجلمود صخر حطه السيل من علِ

معـــــــــــــــــا

لـه أيطلاظبـى وسـاقا نعامـة وإرخـاء سـرحان وتقريـب تتفـلِ

ثم ينتقل إلي وصف الغيث وكأنه في تصويره للطبيعة الثائرة يصور توتره الذي يعيشه . ..

والمتتبع لهذه القصيدة يجد أن الشاعر ما أنشأها إلا لغرض الوصف . والشعر الجاهلي به الكثير من قصائد الوصف ومن التصوير الرمزي أو الإيحائي ما يمثل انتصار الإنسان علي كل مصاعب الحياة .

من هنا نري أن الوصف من الأغراض الرئيسة في القصيدة الجاهلية . فقد تكون القصيدة كلها من أجل الوصف مثل قصيدة امرئ القيس في وصف المطر . وقد يأتي الوصف ضمن أغراض القصيدة . وقد يشمل كل أغراض القصيدة كمعلقة امرئ القيس . وقد تأتي قصيدة الوصف بلا مقدمات .

(و) الغزل

لقي الغزل عناية كبيرة عند الشعراء الجاهليين ؛ لذلك جعلوا المرأة محور حديثهم . فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها . وجعلوها أول موضوع في قصائدهم . وإن سبقها ذكر الأطلال . ومع ذلك فهناك غزلية انفردت بذاتها . ولم يكن افتتاح القصيدة بالغزل . أو بالوقوف علي الأطلال عفويا . وإنما هو التزام شعري يأخذ أشكالا معينة عند كل غرض . ففي المديح رأينا المقدمات تأخذ شكلا غير الأمور التي يتحدث عنها في الهجاء . وأيضاً غير الأمور التي يتحدث عنها في الرثاء وهكذا في سائر الأغراض . وكذلك بيّنا أن المقدمات كاملة في قصيدة المديح .

تنحسر عند الفخر أو الهجاء وتتلاشى في الرثاء . كما وضحنا من قبل . وقد انفردت بعض المقطعات القصيرة بالغزل وحده دون أي غرض آخر

كقول الشاعر:

وقفت لليلي بالملا بعد حقبة بمنزلة فانهلت العين تدمعُ
وأتبع ليلي حيث سارت وودعت وما الناس إلا آلف ومودعُ
كأن زماما في الفؤاد معلقا تقود به حيث استمرت فأتبعُ

وكقول آخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلي سلوت فإنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبرى
وإن يك عن ليلي غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

والمقطعتان السابقتان انفردتا بالغزل . وهما يمثلان موقفا إنسانياً لكل شاعر منهما . ولنتأمل غزل الأعشى في **صاحبته هريرة** :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجلُ
غراء فرعاد مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحلُ[1]
كأن مشيتها من بيت جارتها مرّ السحابة لا ريث ولا عجلُ
تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجلُ[2]

(١) غراء : بيضاء فرعاء : طويلة الشعر مصقول : مجلو ومنمق
عوارضها : أسنانها الوجى : من رقت قدمه من كثرة المشي .
(٢) عشرق : شجرة تحدث صوتا مع الريح زجل : له صوت

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتلُ [1]

يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلي جاراتها الكسلُ [2]

إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنبق الورد من أردانها شملُ [3]

ومن هذا الدرب غزل امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

وهكذا رأينا أن المقدمات الغزلية تمتزج بروح البطولة والقوة . وهي تبين أهمية وجود المرأة في حياة العربى . فهي موطن سعادته . ومركز تفكيره . ومخزون ذكرياته . وهي النسمة التى تلطف عليه صعاب الحياة . وقوة الموت . وقلنا بأن هذه المقدمات طالت أحياناً . وألغيت أحياناً أخري حسب الغرض العام للقصيدة . وقلنا بأن هذه المقدمات لم تكن منفصلة عن القصيدة . بل كانت انتقالا رائعاً نحو الغرض من إنشاء قصيدته .

وعموماً فمعظم الأدب الجاهلي عندما يقترب من المرأة يقترب منها جسداً فيبدأ بالشعر الفاحم ثم ينتقل إلي العينين ثم الجيد ثم الصدر النافر والخصر الدقيق والعجز الثقيل حتى يصل إلي الساقين الممتلئتين كوصف الأعشى لهريرة في معلقته . وامرئ القيس لمحبوبته .

---

١ - تختتل : تتسمع في خفية.

٢ - يصرعها : يقتلها.

٣ - يضوع : يفوح أصورة : رائحة المسك شمل : يشمل ما حوله.

ومع ذلك كان هناك من الشعراء من عرفوا العفة . والإخلاص في الحب مثل المرقش الأكبر وحبيبته اسماء . والمرقش الأصغر وحبيبته فاطمة والمخبل العبدي وحبيبته ميلاء . وعبدالله بن العجلان وهند . وقيس بن الحدادية ونعم وغيرهم وغيرهن . وقد وضع هؤلاء الشعراء المرأة في منزلة عالية . فهي جمال خالص . ملائكية خالصة حتى لتوشك أن تكون روح الحياة وجوهرها .

يقول المرقش الأكبر :-

قل لأسماء أنجزى الميعادا ... وانظرى أن تزودى منك زادا

أينما كنت أو حللت بأرض ... أو بلاد أحييت تلك البلادا

إن تكونى تركت ربعك بالشام ... وجاورت حميرا ومرادا

فارتجى أن أكون منك قريبا ... واسألى القاصدين والوّرادا

وإذا ما سمعت من نحو أرض ... بمحب قدمات أو قيل كادا

فاعلمى غير علم شك بأنى ... ذاك وابكى لصفد أن يقادا

ويقول عروة بن حزام :-

على كبدى من حب عفراء قرحة ... وعيناى من وجد بها تكفان

فعفراء أرجى الناس عندى مودة ... وعفراء عنى المعرض المتوانى

كأن قطاة علقت بجناحها ... علي كبدى من شدة الخفقان

جعلت لعراف اليمامة حكمة ... وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا : نعم تشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران

فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة إلا وقد سليانى

وقالا : شفاك الله والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

وإنى لأهوى الحشر إذ قيل أنني وعفراء يوم الحشر ملتقيان

ومع ما في القصيدتين من سمو وعفة وإخلاص للمحبوب . فقد تحققت فيهما الوحدة الشعورية وبالتالي خلت من كل أغراض القصيدة الجاهلية وما اتهمت به من تفكك . وبذلك صارت قصيدة الغزل تجول في غرض واحد وهو الغزل.

obeikandl.com

الفصل الثانى :

النثـــــر الجاهلـــــى

اتفق القدماء علي أنه كان للعرب الجاهليين نثر فنى ، وأن هذا النثر الفنى كان أكثر وأغزر من الشعر ، ولكن الرواة لم يحفظوا منه سوى النذر اليسير ، ومع ذلك أري أن الشعر أسبق من النثر لأن الحادى في الصحراء عندما كان يركب بعيره أو يسير خلفه يرتجل بعض الأبيات التي يتغنى بها علي إيقاع حركة البعير وعلي ضرب خفه بالأرض ، ..

ومما لا شك فيه أن العرب الجاهليين كان لهم نثر منذ عصور قديمة ، ولكنه لم يرتقي إلي مستوي النثر الفنى ، فالنثر إذن متأخر العهد بالقياس إلي الشعر ، وحسبك أن تنظر إلي حضارة مكة والطائف والمدينة ، فقد كان أهلها يتخذون الكتابة في أغراضهم التجارية والاقتصادية كما كانوا يتصلون باليهود والنصارى والفرس ومملكة الحيرة ومملكة الغساسنة ، وكانت هذه الاتصالات تدعوهم إلي التفكير والروّية ، كما كان لهم ألوان أخرى من العلوم كعلم الفلك والطب وغير ذلك ويكفينا هذا ليكون لهم نثر .

ولا نستطيع أن ننسى ما فعله الرسول ﷺ مع أسرى بدر لتعليمهم القراءة والكتابة للمسلمين ، معنى هذا أن النثر كان موجودا ، والأمثلة علي ذلك كثيرة ، منهاً الخطب التى كانت تقال عند كسرى أو في سوق عكاظ أو في عقود الزواج ، أو عند تعبئة الجيش للحرب ، وظاهر الأمر أنه كان للخطب سنن خطابية ،

وللمحاورين سنن في الحوار ، وظاهر الأمر أيضاً أنه كان لهم سنن في النثر نلمحها في خطب قس بن ساعدة ، وسهيل بن عمرو وغيرهما ، كما نلمحها في أحاديث النبي ﷺ وفي أحاديث الخطباء من الصحابة ، فما هى الخطبة ؟ وما أجزاؤها ؟

إذا تأملنا الخطبة نجد أنها فن مخاطبة الجماهير للإفهام والإقناع والاستمالة، وأجزاؤها المقدمة ، فالموضوع ، فالخاتمة ، وإذا تساءلنا كيف تحقق أهدافها ؟

وللإجابة بإيجاز : من خلال وضوح الألفاظ والعبارات واستخدام أدوات التوكيد ، والتنويع بين الإنشاء والخبر ، وبالموسيقا النابعة من السجع والجناس ، وبالتصوير وبجودة الإلقاء ، وتحسين الصوت ، ولطف الإشارة ، ومن أهم فنون النثر الجاهلي :

(أ) الخطابة

وهي فن مخاطبة الجماهير للإقناع والامتاع وأجزاء الخطبة هي : المقدمة والموضوع والخاتمة وأهم خصائصها :-

١- سهولة الألفاظ ووضوح العبارة .

٢- قصر الفقرات .

٣- تنوع الأساليب بين الخبر والإنشاء .

٤- الميل إلي الإطناب بالتكرار والتوكيد والتفصيل والتوضيح .

٥- الإقناع بالحجج والبراهين من خلال الأدلة الخطابية والواقعية .

٦- الإمتاع بروعة التصوير وجمال التعبير .

٧- يغلب عليها طابع الرد للحكم والخواطر المتناثرة فيها .

- **وقد ساعد علي رقى الخطابة في العصر الجاهلي ما يلي :-**

١- حرية الرأى في إبداء القول .

٢- الفصاحة والقدرة علي التعبير .

٣- كثرة الدواعي والمناسبات كالحروب والسفارة والإصلاح والزواج ولا نستطيع أن ننسى خطبة أبى طالب عندما تقدم لخطبة السيدة خديجة رضى الله عنها - للنبي ﷺ .

ومن أمثلة الخطابة خطبة "قس بن ساعدة" التي قال فيها :

"أيها الناس . اسمعوا . وعوا . إنه من عاش مات . ومن مات فات . وكل ما هو آت آت . ليل داج . ونهار ساج . وسماء ذات أبراج . ونجوم تزهر . وبحار تزخر . إن في السماء لخبرا . وإن في الأرض لعبرا . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ يا معشر إياد : أين الآباء والأجداد؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا . وأطول آجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله . ومرّقهم بتطاوله" .

وقد كان لكل خطبة مكانها المناسب . وزمانها المحدد . ودورها في نقل خبرة الآباء للأبناء والحكماء لجماهير الناس . وخطبة "قس" ألقيت هي وغيرها في سوق عكاظ الذى كان يعقد كل عام مع بداية هلال ذى القعدة . ويستمر عشرين يوما

ينشد فيه الشعراء شعرهم . ويلقي فيه الخطباء خطبهم . ويحكّمون في شعرهم أو نثرهم كبار شعرائهم . وكان النابغة الذبياني وغيره يفصلون في تلك القضايا . ويشهدون للمتفوق في تلك الفنون .

وقد كثر في الخطبة السجع والجناس والازدواج والطباق والصور الجمالية . وتلك سمات الخطبة في ذلك العصر .

(ب) الوصية

وهى قول صادر من مجرب خبير بالحياة يقوله لمن هو دونه في التجربة ولها خصائص منها :

١- سهولة اللفظ . ٢- الميل إلي السجع .

٣- قصر الفقرات . ٤- تشتمل علي الحكم .

مثال للوصية:

وصية أم لابنتها لأمامة بنت الحارث تقول فيها :"أى بنية . إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك . ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه . ولكن النساء للرجال خلقن . ولهن خلق الرجال .

أي بنية . إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت إلي وكر لم تعرفيه . وقرين لم تألفيه . فاحفظى له خصالا عشرا يكن لك ذخرا .

أما الأولي والثانية : فالخشوع له بالقناعة . وحسن السمع له والطاعة . وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لمواقع عينه وأنفه . فلا تقع عينه علي قبيح . ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه . فإن تواتر الجوع ملهبة . وتنغيص النوم مغضبه . وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس لما له ، والإرعاء علي حشمه وعياله ؛ وملاك الأمر في المال حسن التقدير . وفي العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا . ولا تفشين له سرا . فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره . وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتما . والكآبة بين يديه إن كان فرحاً" .

والوصية كما تبدو لنا تبين دور المرأة في الحياة الاجتماعية . فهي خبيرة مجربة تقدم نصحها لابنتها بطريقة لبقة . وبأسلوب رقيق .

وكما يقول الإمام الشافعي : "من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه . ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه" .

وفي الوصية التزمت أُمامه بالسجع والازدواج والطباق والجمل القصار . ونوعت بين الأساليب الخبرية والإنشائية فبالتالي نفذت وصيتها إلي قلب ابنتها.

(ج) الأمثال

وهي قول يوجز سائر علي الألسنة له مورد ومضرب قيل في حادثة حقيقية أو خيالية **وأهم كتب الأمثال :**

١- مجمع الأمثال للميداني .

٢- المستقصى للزمخشري .

٣- جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري .

- **وتتميز الأمثال بـ :**

١- إيجاز اللفظ .

٢- قوة العبارة .

٣- دقة التشبيه .

٤- سلامة الفكرة .

- **والأمثال تعد "صوت الشعب" للأسباب التالية :-**

١- ارتباطها بالبيئة وما فيها من حرب وسلم .

٢- تعبيرها عن صفات العربي وأخلاقه وعاداته .

٣- تعبيرها عن طرق تفكيرهم ، ودقة ملاحظتهم ؛ لذلك كانت الأمثال تعبيرا عن البيئة وما يحدث فيها من تغير وتطور. ومورد المثل هو الحالة المشابهة للحادثة التي قيل فيها المثل لأول مرة ، ومن أمثلة ذلك :

(١) كأن علي رءوسهم الطير

مورده : كان العرب يخرجون جماعات لصيد الطيور . فإذا اختبئوا لها تحت الأشجار التزموا الصمت والحذر وكأن على رءوسهم الطير.

مضربه : يقال لكل جماعة من الناس تجلس في سكون وصمت ؛ ولذلك قال

البلاغيون : كل مثل استعارة تمثيلية إلا ما ليس له مورد فهو تشبيه .

- **وقد وضحت ملامح البيئة في المثال السابق لما يلي :-**

١- كثرة أنواع الطيور في البيئة الصحراوية .

٢- مهارة العرب في الصيد .

٣- كثرة الأشجار في البيئة العربية .

٤- خروجهم في جماعات للصيد .

(٢) رجع يخفى حنين

مورده : ركب أعرابي ناقته وذهب إلي السوق لشراء حذاء من إسكا في اسمه "حنين" فساومه الأعرابي . وفي النهاية لم يشتر الحذاء . فأخذ حنين فرده من الخف وألقاها في طريق عودة الرجل الذى قال حين رآها : ما أشبه هذه بخفي حنين . لو كانت الثانية معها لأخذتها وكان حنين قد وضع الثانية بعدها بمسافة فلما رآها الأعرابي ترك ناقته وعاد ليأخذ الفردة

الأولي . فسرق حنين ناقته وهرب بها . فعاد الأعرابي بالخفين . ولما سأله قومه : بم رجعت ؟ قال : رجعت بخفي حنين . مضرب المثل : يقال في موقف من يرجع بالخيبة والفشل .

- **وقد وضحت ملامح البيئة في المثال السابق وهي :-**

١- كثرة المساومات في البيع والشراء .

٢- جشع التجار واستغلالهم .

٣- معرفة صناعة الأحذية .

ورغم ما في هذا المثل من أساليب خسيسة لإيذاء الناس . إلا أنه صار مضربا لكل من لا يحقق النجاح رغم تباعد معني المثل عن هذا الأمر .

(٣) جزاء سنمار

مورده : استعان النعمان بسنمار المهندس الرومى ليبنى له قصرا فريدا . فلما أتمه له ألقي به الملك من أعلي القصر حتى لا يبنى قصرا مثله لغيره .

مضربه : يقال لمقابلة الإحسان بالإساءة .

- **وقد ساهم المثل في توضيح ملامح البيئة العربية في ذلك العصر وهي :-**

١- تشبه الملوك العرب بالأعاجم في بناء القصور .

٢- أنانية الملوك وأثرتهم .

٣- ميل بعض الملوك إلي الظلم والاستبداد .

وهذا يذكرنا بقول بلقيس في سورة النمل : "قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة . وكذلك يفعلون" .

والشئ الملفت للنظر كيف يتسم الحاكم بالخسة والغدر ومقابلة الإحسان بالإساءة والبناء بالهدم ؟!!

(٤) خذ الرفيق قبل الطريق

مورد المثل :

سأل أب ابنه المسافر عمن سيصاحبه في رحلته . **فأجابه** : لا أحد معللا ذلك بأنه سيسلك أوضح الطرق . **فقال أبوه** : خذ الرفيق قبل الطريق .

مضرب المثل :

يقال لمن يريد السفر دون أن يستعين برفيق وقد أعجبنى في هذا المثل إيجابية العربي . ودور الآباء في نصح الأبناء . لأن الجديد في حاجة إلي خبرة القديم .

- **وقد ظهرت ملامح البيئة في هذا المثل كالآتي :-**

١- ضرورة الإعداد للرحلة .

٢- نصح الآباء للأبناء .

٣- دور الأب في الحفاظ علي حياة ابنه .

٤- طول الطرق وكثرة أخطارها وكلنا يتذكر رحلة سلمان الفارسي من فارس إلي المدينة وكيف كاد له المسافرون معه في الرحلة . وكيف سلبوا متاعه . وباعوه عبدا ليهودى بالمدينة .

(٥) إنك لا تجنى من الشوك العنب

مورد المثل : لما رأى صبى أباه يغرس شجرا فأثمر عنبا . ظن أن كل ما يغرس يثمر عنبا فغرس شجرة شوك وانتظر.

فقال له أبوه : إنك لا تجنى من الشوك العنب مضرب المثل : يقال لمن يرجو المعروف في غير أهله .

- ***ونظهر في المثل ملامح البيئة العربية وهي*** :-

١- كثرة الشوك والعنب في بيئتهم .

٢- وجود من يقابل الإحسان بالإساءة .

٣- وجود من يفعل الشر وينتظر الخير.

(د) الحكم

وهي أقوال موجزة مشهورة صائبة الفكرة . رائعة التعبير تتضمن معنى مسلما به يهدف إلي الخير والصواب .

- ***أسباب انتشارها*** :

١- اعتماد العربي علي التجربة .

٢- استخلاصه العظة من الحوادث التي تقع .

٣- نفاذ بصيرته . وصفاء قلبه . وتمكنه من اللغة قولا واستيعابا .

وتعد الحكم صوت العقل ؛

لأنها تنبع من الخبرة والتجربة وهذا يقتضي التأمل والتفكير والموازنة بين الأمور واستخلاص العبرة منها .

■ ***ولنتأمل بعض الحكم وما تتسم به من روعة التعبير :-***

١. "مصارع الرجال تحت بروق الطمع" والحكمة هنا دعوة إلي القناعة فعاقبة الطمع الهلاك .

٢. "أول الحزم المشورة" .

وهي دعوة إلي استشارة الآخرين للوصول إلي ضبط الأمور.

٣. "اترك الشر يتركك" .

وهي دعوة إلي البعد عن كل أسباب الشر كأصدقاء السوء .

٤. "رب ملوم لا ذنب له"

وهي دعوة إلي التحقق من الأمر قبل اتهام الأبرياء .

أهم نتائج الفترة الجاهلية

وقبل أن ننتقل إلي فترة جديدة من تاريخ الأدب كان لزاما علينا أن نحدد أهم نتائج الفترة السابقة من تاريخ الأدب الجاهلي شعره ونثره . وهذه النتائج تكشف لنا أن الشعر "ديوان العرب" ؛ لأن فيه تتمثل الحياة الجاهلية بكل عاداتها وأعرافها وحمقها وطيشها وحكمتها ومثلها العليا . بل ويصور لنا إحساس العربى وهو يجابه مشاكل حياته اليومية . وكذلك يصور حياته الخاصة من حب وخصام ونزاع ووئام . ولم يكن الشاعر الجاهلي أو الناثر الجاهلي ببعيدين عن معين الثقافة فقد كانا علي قمة المثقفين إذ عليهما أن يعرفا ما يحمد . وما يعاب . ويعيا التاريخ القبلي والحوادث وأيام العرب . ولو نظرنا إلي شعر الأعشى مثلا أو شعر النابغة لعرفنا دور الثقافات التي كانت سائدة في عصريهما في إثراء الوجدان وفي تعميق نظرتهما إلي الأشياء . وفي تميزهما برجاحة العقل . وتأصيل كل معاني الكرم والوفاء والإخلاص .

وقد التزم شعراء هذه الفترة بقبيلتهم فهم يناصرون قومهم ويسخرون ألسنتهم للدفاع عنهم . ويعملون جاهدين علي إصلاح ذات بينهم وإيثار العفو والصفح فيما بينهم فإذا انتهكت حرمات القبيلة . وتطاول عليها متطاول هددوا وثاروا ونالوا حتى من كسرى نفسه . ومعركة "ذى قار" ، ومقتل عمرو بن هند خير مثال علي ما نقول . وبذلك نستطيع أن نقول : إن الشعر قد صور لنا حياة العربي بكل ما فيها من متناقضات . وقد حفظ لنا التاريخ الأدبي الكثير من نصوص الشعر . ولم يصل

النثر إلي هذه المنزلة لقلة ما وصل إلينا منه ، ولاختصاص الشعر بأبواب لم يطرقها النثر.

والناظر إلي الشعر الجاهلي لا يحق له أن يقيسه بمقاييس النقد الحديثة ، وإنما يجب أن ينظر إليه بعيون أصحابه وآذانهم ، ولن تكون مشاركتنا وفهمنا للاتجاهات الفكرية والعاطفية عند الشاعر الجاهلي إلا إذا أحسنا فهمه ، وتعاطفنا معه ، وبهذا نستطيع أن نقدر القيمة الكاملة للشعر الجاهلي ، بل ونستطيع أن نحقق أكبر قدر ممكن من المتعة والفائدة .

وعموما القصيدة الجاهلية تحققت فيها الوحدة المعنوية كما يقول الدكتور طه حسين ، وتحققت فيها وحدة الجو النفسي كما بيّن الكثير من النقاد ، وإذا نظرنا من زاوية الإبداع نجد هذا الشعر – كما يقول الدكتور سامي منير [1] "بناء شعريا من نوع مختلف ليس متهدما كما يخيل إلينا إذا نظرنا إليه بالنظرة الغربية بل له انسجامه الخاص الذي لا يمجه ذوقنا إذا أحسنا تفهمه ، والتعاطف معه" .

وإذا تأملنا الألفاظ التي استخدمها الشاعر الجاهلي في المقدمات الطللية مثل: عفت الديار ، درست الدمن ، أمحت الرسوم ، الحياة تفنى ، تحت جبر القضاء ، ظلم المنية ، خبط عشواء ، الموت قريب ، الدهر العاتى ، نجد أن الحياة الجاهلية ملأت عقل وقلب العربي ، ورغم تشاؤم المقدمات الطللية أو الرحلة في الصحراء القاحلة ، أو البكاء علي الأطلال ، أو حزنه لفراق الأحبة ، فهو يقبل علي الحياة ،

(١) ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي صـ١٣٣

وكأن ما يحدث من صعاب وآلام حافز له لاستكمال رحلة الحياة بجرأة أكيدة ، ونشاط جديد ، وعزم جديد ، وقد بلورت أشعار "طرفة بن العبد" فلسفة العربي في الحياة فيقول :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة

وما تنفد الأيام والدهر ينفد

وهكذا أحس العربي في العصر الجاهلي بحتمية الموت ، ورأى رأي العين ما يفعله القدر به ، وكان إحساسه بذلك قويا ، جعله يتحمل قسوة الحياة في صبر وجلد ، فهم يؤمنون بهذه الحياة الدنيا ولا يؤمنون بغيرها فينفعلون بها ، وبما يحدث فيها قبل أن تطويهم الأرض بسكنها الأبدى .

يقول الأسود به يعفر مترجما ذلك :

فإذا النعيم وكل ما يلهى به

يوما يصير إلي بلى ونفادِ